الهيئة العامة
لقصور الثقافة

244

أصوات
أدبية

لحظات غرق جزيرة الحوت

محمد المخزنجي



ق

لحظات غرق جزيرة الحوت

محمد المخزنجى

244

أصوات أدبية

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• الغلاف : عمر جهان

• لحظات غرق جزيرة الحوت : محمد المخزنجي

• الطبعة الأولى - أول سبتمبر 1998

المراسلات

باسم مدير التحرير على العنوان التالي :

١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني

القاهرة - رقم بريدي : ١١٥٦١

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز

المشرف العام على النشر
على أبو شادى

أمين عام النشر
محمد كشيك

رئيس التحرير
محمد البساطى

مدير التحرير
شحاتة العريان

وها أنذا، بعد سنوات، أجدنى فى مواجهة هذين النصّين " فصول تشرنوبيل الأربعة" الذى وُلِد مع الانهيار المدوّى لذلك المفاعل الشهير عام ١٩٨٦، و"طوابير موسكو ٩٠" الذى وُلِد فى أيام وداعى لموسكو فى العام ١٩٩٠ نفسه.

ودون جهد يُذكر، لأن المسألة ثاوية فى أعماقى تماماً، أمد يدى بأناة وشجن، فتمسك أناملى بالخيط الذى يسرى متواصلاً فى نسيج هذين النصين اللذين لم أفكر وقت كتابتهما فى أنهما سينشران معاً.

من حيث الشكل أتصور أنهما نوع من التحقيق الأدبى، القصصى، مشيدان على وقائع لحظات حقيقية، مُعاشَة، لكن هذه اللحظات ذاتها وماشُيِّد عليها، تم الوصول إليها وانتقاؤها بروح

الفن لابحرفية التقرير. لهذا أصنفهما كتحقيقين قصصيين. فيهما من جسد التحقيق نواة الوقائعية. ومن أثير القص ذلك الشغل وذلك الشجن.

أمّا عن الجوهري، فإنه مشاعر حزينة، أليمة، توشك أن تكون نوعاً من الحسرة أقرب ما تكون لمشاعر من يتابع بكيانه المغدور كُلِّه جزيرة حلمه الكبير وهي تغوص سريعاً، غارقة فى أعماق سوداء لمحيط لامتناه. فلا أنكر - حتى الآن - أن الاتحاد السوفيتي السابق، أو على وجه الدقة: تمنياتى أو توهماتى فى الاتحاد السوفيتى السابق، أو على وجه الدقة: تمنياتى أو توهماتى فى الاتحاد السوفيتى السابق، كانت نسقاً من الحلم الشخصى الكبير، رغم أنني لم أكن شيوعياً أبداً بالمعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة.

حتى ديسمبر ١٩٨٥ لم أكن غادرت مصر إلى أى مكان فى العالم، وكنت من أواخر الممتنعين

والممنوعين من السفر، رغم أن وضعى كطبيب فى إحدى المستشفيات النفسية الفقيرة للدولة كان يدعونى للسفر على الأقل كما فعل ٨٠٪ من خريجى دفعتى بكلية الطب، لإصلاح عطب الحاجة الماسة إلى المال بالسفر والعمل فى إحدى الدول العربية النفطية.

آنذاك، كانت الخطوات الأول فى مسيرتى الأدبية قد بدأت بنجاح ملحوظ، وكان ذلك عزاء ينسينى العوز المادى ويجهض أى شروع فى السفر لأسباب اقتصادية. وفجأة، فى نهاية العام ١٩٨٥، وجدت أمامى عرضين للسفر مغريين تماماً، ومتسقين مع نشدانى الثقافى. جاء العرض الأول من جامعة أو هايو الأمريكية - عبر ترشيح الراحل الدكتور لويس عوض والمستشار الثقافى الأمريكى فى القاهرة ليسلى لايل - للسفر إلى الولايات المتحدة فى "منحة ابداع" أدرِّس فيها الأدب العربى، وأدرس الأدب والحياة فى أمريكا. أما العرض الثانى، فكان منحة

سوفيتية. رشحنى لها بعض الأصدقاء فى إطار منظمة التضامن الآفرو آسيوى، وزكانى لها الكاتب الراحل عبد الرحمن الخميسى، ومترجم قصصى إلى الروسية من اتحاد الكتاب السوفيت. وكانت منحة للدراسات العليا فى الطب!

لم أتردد فى حسم اختيارى، واندفعت فى نشوة عارمة محلقاً باتجاه حلمى. كانت صورة الاتحاد السوفييتى المتشكلة فى داخلى، بناء على معلومات شائعة يسارياً، واستعداد تعويضى نفسى للتقبل، تشكل حلماً نادراً وخاصاً تماماً بقلبى. كما أن اتجاهات الطب النفسى السوفييتى، التى كنت مطلعاً على أطرافها، بدت لى فى بعض جوانبها عجائبية، بل سحرية أحياناً.

لم أكن شيوعياً كما أسلفت. كان الشيوعيون يتهموننى بأننى "مجرد رومانسى ثورى"، وكانت السلطات تحشدنى - دون انقطاع - على رأس القوائم الشيوعية فى مدينتى وفى طليعة

المسجونين. وكنت بين هؤلاء وهؤلاء أحلم بالمدينة الفاضلة، أى العادلة، أو الاشتراكية كما كنت أتصور، لكننى لم أخضع أبداً لفجاجة وتهافت الإلحاد، ولا لفظاظة مفهوم "دكتاتورية البروليتاريا". كما أن طبيعتى الجانحة دوماً نحو الحرية، ولو إلى درجة الفوضى، جعلتنى عنصراً مستعصياً على الاستقطاب والتنظيم الشيوعيين.

كنت، ولم أزل، أرى فى صورة المجتمع الحريص على العدالة الاجتماعية، والتكامل العام، حلماً إنسانياً جميلاً ونبيلاً. فإذا كان هذا الحلم مرتبطاً - ولو وهمياً - بثرى أرض عاش عليها ومات فيها تورجينيف ودوستويفسكى وتشيكوف وتولستوى وجوركى وليرمنتوف، أى الكتاب الذين سحروا عمر الصبا فى كيانى الأدبى. فى حالة كتلك، كان الخيار محسوماً باتجاه الشرق لا الغرب.

وصلت - أكاد أكون محلّقاً من فرط الغبطة - إلى موسكو فى مطلع عام ١٩٨٦. وبعد أيام

السحر الأولى، فى أول بلد كبير أراه، وأول ثلج فى الشوارع، وأول وعد من الصبايا البيض ملونات العيون، بدأت أنفجر وحدى فى نوبات بكاء ليلية مريرة!

كنت أحس أكثر مما أستطيع التحديد بالقول، وأخبِّى إحساسى حتى لا يشمت بى وبحلمى أحد من الناس. وبعد أربعة أشهر فقط من وجودى فى العاصمة الأوكرانية كييف، كانت تشيرنوبيل، وكنت قد لمست أطناناً من الكذب الأممى، وعاينت اشكالاً شتى من دناءات الرشوة والفساد، واقتربت كثيراً من حدود انكسار القلوب. لكن الصورة - مع ذلك- لم تخل من حوافز حقيقة للاستمرار. وبعض الحلم.

ثمة جماليات حقيقية لم يكن القبح قادراً على إغراقها فى الخضم السوفيتى. إتاحات ثقافية، ودفء حقيقى بين بشر لا تفصلهم فجوات اقتصادية متوحشة، وتفجرات سخية من الجمال

الطبيعى للبيئة - قبل تشيرنوبيل، وكان الطب النفسى الذى اخترت الدراسة فيه كنزاً حقيقياً إذ تخصصت فى مقاربته عبر طرائق الطب البديل. ولعلنى أول طبيب نفسى عربى يأخذ هذا الاتجاه فى الاتحاد السوفيتى السابق، ولقد كان ذلك خليطاً باهراً من العلم والفن والحكمة. ابتداء من العلاج بالوخز والصوم والتنويم والنباتات والمعادن والتأمل، حتى التشخيص بقراءة الحدقات، والفراسة التى أظن أننى قدمت اقتراحاً مهماً لتحديثها وإن لم أكمله.

واصلت بعد تشيرنوبيل التى بدت لى كأول صدع كبير يُرصد فى جدران البناء الهائل للاتحاد السوفيتى، ومكثت أشاهد الصدوع الأصغر والأخطر فى هذا البنيان. ولقد كانت عودتى الأولى من الاتحاد السوفيتى فى أعقاب صدام أخرجته إلى صفحات الجرائد مع المسئول المباشر عن الطلاب العرب فى وزارة التعليم العالى السوفيتية الذى

أخفى قرار إستمرارى فى دراسة الدكتوراه رغم استحقاقى الواضح، لأننى لم أقدم له الرشوة التى اعتاد عليها. وكان أن رجعت إلى موسكو بعد تفجر الموضوع والتحقيق مع هذا المسئول والتأكد من استحقاقى، وربما تأكدهم من قدرتى على الاستمرار فى فضح ما أعرف من صغائر هذا الكيان الهائل.

عدت لأستكمل الدكتوراه، لكننى لم أشأ الاستمرار فى العيش فى الاتحاد السوفيتى، لهذا اخترت صيغة "الدراسة من الخارج" أى أن أبحث موضوعى فى مستشفيات مصر، وأبلور النتائج وأؤدى الامتحانات والدفاع عن الرسالة فى الاتحاد السوفيتى. ومرة ثانية غادرت حلمى المغدور. وكانت اخر المشاهد هى "طوابير موسكو ٩٠"

كنت أعرف، بيقين الحس، أن الاتحاد السوفيتى مرشح للانهيار، ولأسباب أبسط وأوضح من تلك التى ساقها ولا يزال المحللون السياسيون ومراكز الدراسات الاستراتيجية. لقد انهار الاتحاد

السوفيتى لسبب واحد يجمع كل الأسباب وهو: الكذب! وسأظل أذكر أن أحد المنشقين عندما سألوه عن سبب هروبه من الاتحاد السوفيتى قال: "لقد أردت أن أهرب بأولادى من مصير الكذب". لم أجد تعبيراً أدق من ذلك، ولا أبلغ، ولا أكثر إيلاماً، لهذا لم أنسه أبداً.

لقد كان مصير الكذب مريراً جداً بالنسبة لى، لا كشخص مفرد، ولكن كنموذج من ملايين الحالمين الذين تطلعوا بعيون التمنى إلى تلك الأسطورة المنبسطة فى الشمال الشرقى من عالمهم الجنوبى البائس. ولا أجد شعوراً يقارب شعورى فى ذلك إلا ما أتصوره عن مشاعر "السندباد البحرى" فى إحدى حكايات الف ليلة، عندما تحطمت سفينته فى عرض البحر وسبح إلى جزيرة رائعة تراءت له، وبعد أن عاش هنيئا بين ربوعها بدأت فى التحرك وراحت تغرق إذ كانت مجرد تكوين عارض على ظهر حوت.

الاتحاد السوفيتى كان احتمالاً لجزيرة إنسانية رائعة، لكنها عارضة، على ظهر حوت من أكاذيب الإدعاء، ونقائص ايديولوجيا تزعم الاكتمال، وصغائر نفوس قادة صغار لبلد كبير وعريق، عراقة دوستويفسكى وتشيكوف وتورجنيف وبوشكين وتولستوى وجوركى وبولجاكوف.

فى "تشيرنوبيل" تحت علامة التحرك الكبير للحوت الأسود، ورأيت ارتجاج الجزيرة على ظهره. وفى "موسكو ٩٠" صار واضحاً أن الجزيرة تغرق فى بحر الظلمات الذى غاص فى أعماقه الحوت. ورغم يقينى فى أنه لا يصح إلاّ الصحيح، وأن الكذب لا يعمر طويلاً، إلاّ أن لحظات غرق هذه الجزيرة الحلم. أو وهم الحلم، قد أورثتنى حزناً لا أظنه يقف عند حدود النصوص.

محمد المخزنجي

١٩/١٠/١٩٩٦

(١)
فصول تشيرنوبيل الأربعة
(لحظات كاتب مصرى عايش الكارثة)

الربيع

متى يأتى الربيع فى «كييف» وكيف يأتى

تقول النساء ضاحكات: إنه يأتى فى الثامن من مارس (عيد المرأة السوفيتية) ويقول الجميع: «إنه يتفجر فجأة»... ننام والشجر عار، وبقايا الثلوج فى الشوارع، ونصحو فإذا الدنيا تضج بالخضرة. كأنما تفجرت فى الليل. لكن لهذا التفجر نذرا: فالثلوج تذوب ويتسارع ذوبانها مع ازدياد الدفء. ويوشك صوت جريان مياهها على المنحدرات والأرصفة وحواف الأسقلت أن يصيبنا بالأرق طوال الليل. بل طوال الليالى التى تسبق انفجار الخضرة. وفى النهار تلوح نذر أخرى للربيع: طيور مهاجرة تعود، وجذوع أشجار تعلوها مسحة من الخضرة، وجذوع أخرى تسخو بعصيرها لو خدشت.. نسمع صوت كروان مفاجئ، أو نرى بين أوابد الطير -

عصافير الدورى والعقبان والحمائم – طائراً ملونا يقاتل بتعثر لالتقاط غذائه.

للربيع الذى يتفجر نذر، تماما مثل كارثة الربيع.. «تشيرنوبيل»، التى يحركها النطق الروسى لتكون مبنى يدل على معنى، هكذا: «تشورنى» ومعنا الأسود. و«بُل» بضم الباء وهى تعنى: الألم. فيكون المعنى: الألم الأسود. ولقد كان الحادث أسود والألم أسود. وكانت النار كما وصفها أحد رجال الأطفاء الذين هبوا من نومهم على صراخ الانذار الأكبر (الإنذار من النوع الثالث) فوق محطة تشيرنوبيل الكهروذرية: «كانت ناراً سوداء تتأجج فوق سطح الوحدة الرابعة من المفاعل».

نار سوداء انطلقت فى الساعة الواحدة وثلاث وعشرين دقيقة وثمان وأربعين ثانية فى ليلة السادس والعشرين من ابريل ١٩٨٦ ، عندما حدث انفجار الوحدة الرابعة من وحدات المحطة الكهروذرية. وكان للانفجار (كما ثبت بالتحقيقات فيما بعد وتم نشره) نذر.. لكنها لم تكن تماما كنذر الربيع، فقد كانت خافية، أو تستخفى أو

يتم اخفاؤها عمدا فى واقع بهى الصورة يرعب الأحشاء. فبالمحسوبية والرشوة كان أهل الثقة وأبناء الواصلين يحلون حيث كان ينبغى أن يحل أهل الخبرة وخبرة المجتهدين. ومن تزواج الفساد وخبث النوايا كانت تتوالد شرار الصور. ففى المفاعل المنكوب كانوا يلعبون القمار والدومينو ويكتبون رسائلهم فى وقت العمل. وكان كل شئ، مع ذلك، يبدو تاماً. كان التستر يحجب نذر الكارثة. فمن أصل ٧١ حادث وقعت بالمفاعل، لم يتم التحقيق الا فى ٢٧ منها. وهذا مجرد مثال.

وبعد (عَمْرَة) فى الوحدة الرابعة راح واحد - من أبناء الوصلين لابد - يُجرى بجهالة تجربة عظيمة الخطر، فى عمق ليلة السادس والعشرين من ابريل ١٩٨٦ .. فقد رفع - دون أية احتياطات أمنية - من طاقة المفاعل.. ارتفعت الحرارة لحد الرعب.. لحد الجحيم، ثم صب على هذا الجحيم مياه التبريد، فكان الحريق وكان الانفجار. لقد اشتعل الجرافيت المهدئ وتحول الماء بفعل الحرارة الجهنمية

إلى عناصره الأولى: الأكسوجين، والهيدروجين الذى اشتعل وانفجر، ففجر الأغلفة المعدنية الثقيلة حول الوقود النووى وفجر سقف صالة المفاعل.. صار الوقود النووى عاريا ينفث اشعاعاته المميتة عبر فجوة السقف. بركان من نوع جديد تفجر وأحرق أول ما أحرق من فجره. فقد تبخر تماماً حتى لم يعثر له على أثر ذلك المتعالم الطائش. وتوالى خروج جنى الذرة من قمقمة الذى انفتح بقوة الترخُّص البشرى فى مواجهة التكنولوجيا العالية. قفزت الحماقة مجتازة أكثر من مائة نظام للأمان يتلو بعضها بعضا، حتى لقد اقترح أحد الصحفيين الذين كانوا يغطون الحادث بوجوب انشاء نظام جديد للأمان يسمى: «أمان ضد الحماقة».

وفى ليلة التعتيم والتكتيم والارتباك لم يعرف الناس - حتى القريبين منهم - بفداحة الكارثة. كذب «بريخانوف» مدير المحطة النووية عامدا ليقلل من شأن الخطر وظل سكان مدينة «بريبيات» التى تسكنها عوائل العاملين بالمحطة يغطون فى النوم فاتحين نوافذهم لنسائم ليل

الربيع. ليل الرعب الذرى المخفى بعناية البيروقراطيين المحليين. فقد كانوا يأملون فى اخماد النار دون أن تعلم بها العاصمة القريبة: «كييف»، عاصمة الدائرة التى تضم فى شمالها «تشيرنوبيل»، على رأس بحر كييف، وعلى مقربة ٨٥ كيلو مترا منها. وكنا فى كييف نغط فى النوم أيضا وإن أغلقنا نوافذنا اتقاء المطر. ولعلى لاحظت أن أمطار الربيع التى لم ينقطع انهمارها فى هذه الليلة كانت مصحوبة ببروق غريبة ورعود.

فى الصباح، عندما كنت أتجول فى المدينة الحديقة تحت شمس ساطعة لم يكن هناك ما يريب. لم نسمع شيئا. لم تكن هناك كلمة تحذير واحدة قد صدرت عن خطر الإشعاع الذرى الطليق. وإن قيل أن اتجاه الريح قد أنقذنا فى كييف خلال هذه الايام المرعبة الأولى، إذ كانت الريح تتجه شمالاً وغرباً– على العكس تماما من اتجاه كييف الواقعة جنوب شرق تشيرنوبيل. لكن الخبر بدأ يتسرب. فبعد الخبر الهامشى الذى لم يلفت انتباه أحد بواحدة من نشرات التيفزيون، وبعد ازدياد قوة الاشاعات

فى أعقاب انتهاء احتفالات الأول من مايو. عدنا نتذكر أن المدينة كانت خالية بشكل غريب من (الأتوبيسات) فى نهار السابع والعشرين من ابريل، ونتذكر الطوابير الطويلة لعربات الرش التى كانت تتوارى فى الشوارع الجانبية من ميدان «البابيدا» فى انتظار الانتهاء من احتفالات الأول من مايو، لتنطلق فى غسيل محموم للميدان والشوارع التى كان يزدحم فيها الناس. كان ذلك يؤكد أنباء الحريق النووى وأخبار التهجير الكبير. حيث غادر المنطقة البالغ نصف قطرها - من المحطة - ثلاثين كيلو مترا، نحو مائة ألف إنسان فى رتل من الباصات والسيارات امتد زهاء عشرين كيلو مترا . لم يكن هناك شئ مجلجل، أو جلى، يبين فى كييف فى هذه الأيام الأولى رغم أن اسم المدينة راح يتردد بلا انقطاع كمعلم من معالم نشرات الأخبار والمواد الإعلامية فى الجانب الآخر. فى أوربا الغربية وأمريكا . كان هناك حريق إعلامى تبلغ مامعنا لفحاته، ونحن نسبح فى الاشاعات المتكاثرة وشبه الصمت السوفييتى، مؤرقين ما بين

التصديق والانكار.. نسمع: «أسوأ كارثة نووية فى التاريخ البشرى سحابة الاشعاعات المميتة تغطى دول اسكندنافيا وبولندا وألمانيا الغربية. شائعات عن تلوث مياه الشرب فى كييف. خبير غربى يعلن عن اعتقاده بأن ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص سيلقون حتفهم فى دائرة قطرها ٥٠٠ كيلو مترا من تشرنوبيل متأثرين بسرطان الرئة».

وبعد تسعة أيام كاملة، وفى مساء الخامس من مايو أطل علينا وجه رومانين - وزير الصحة الاوكراييني ليتكلم عن الحادث ويطمئن الناس، لكنه فى نفس الوقت شدد على الاستمساك بالاجراءات الوقائية الواجب اتخاذها فى هذا الشأن وكانت كلها تثير الفزع: «فإغلاق النوافذ دائماً، وتغطية الأطعمة حتى المعلب منها وعدم شراء ألبان أو أسماك أو لحوم أو خضروات أو فاكهة إلا إذا كانت مراقبة اشعاعيات وترك الاحذية خارج الأبواب، وتغيير الملابس والاستحمام بعد كل عودة من الشارع». ثم ألمح رومانينكو إلى الاستعداد لتهجير الأطفال من الصف الاول حتى السابع (من سن ٦ إلى سن ١٤ فى مدة

أقصاها الخامس من مايو (أى فى غضون عشرة أيام). كما تم التحذير من الصيد فى مياه الدنيير والاستحمام على شواطئه والتواجد فى الحدائق والغابات. وبدأت دراما تشيرنوبيل فى كييف....

صارت المدينة تغتسل بلا انقطاع.. كانوا يغسلون الحيطان، والأرصفة، والعربات والأسفلت ، والشجر، والعشب، كل شئ يغسل بخراطيم مياه الاطفاء وعربات الشوارع وبكل وسيلة متاحة. وثمة رغوة من مادة مثبتة للغبار كانت تظهر فى الطرقات التى لم ينقطع ابتلالها. ارتبكت الأسواق، وازدحمت المحطات وظهرت سوق سوداء لتذاكر الطائرات التى ازدحم حول مكاتب شركاتها جمهور غفير عصبى المزاج. وكانت الروح اليائسة للناس تحاول أن تتماسك فى شكل الحفاظ على صرامة الطوابير واحترام قوانين المرور وعبور المشاة وأوقات العمل الرسمية. لم يكن يظهر على السطح شئ بين. لكن، عاد السكارى يظهرون مترنحين فى الشوارع - بعد فترة انقطاع لتطبيق قوانين مكافحة السكر المشددة

- بدعوى اضطرارهم لشرب قليل من «الفودكا» أو بعض «الفينو الأحمر» اللذين شاع أنهما مضادان للإشعاع لاحتوائهما على عنصر الكوبالت وبدأت لافتات من نوع جديد تظهر عند المداخل من مثل: «تذكروا أن مستوى الاشعاع فى الغرف مقفلة النوافذ أقل بعشر مرات مما هو عليه فى الشوارع». و» ارتاحوا داخل البنايات. ولأول مرة بدأت تظهر كلمة «التابوت».. كأمل!!

والتابوت المنتظر كان مشروعا ضخما لبناء من الخرسانة المسلحة يصب تحت وفوق وحول الوحدة الرابعة المنكوبة من مفاعل تشيرنوبيل. ولقد حفروا فى الأيام الأولى نفقا هائلا تحت المفاعل، أدخلوا فيه الآزوت المسيل الذى تبلغ درجة حرارته بضع مئات من الدرجات المئوية الصفر ليبرد قلب المفاعل المتأجج المنذر بالانفجار. وفى الزنزانة الهائلة التى حفرها رجال المناجم المرتدون ملابس بيضاء تحت المفاعل صبت آلاف الأمتار المكعبة من الخرسانة لتكون (بلاطة) تمنع وصول التلوث النووى إلى المياه الجوفية. وكانوا يصبون فى جدران «التابوت»

خمسة آلاف متر مكعب من الخرسانة المسلحة فى اليوم الواحد. كانوا يبتغون محاصرة الجنى المطل برأسه من القمقم بأقصى سرعة قبل أن يكتمل خروجه. بينما شرعت الرياح - مغيرة اتجاهها نحو الجنوب - تلفحنا فى كييف بجرعات من الاشعاع مختلف عليها ولم تكن لتدركها الحواس.

ثمة من كان يهون من أمر هذا الإشعاع الذى يصيب كييف، وثمة من كان يهوّل. أما أنا فقد سيطرت على مشاعر مركبة غريبة، خارج التهوين والتهويل: كنت فى حالة مدهشة - حتى لنفسى - من الاستنفار الداخلى. رحت أضرب بكل تعليمات الوقاية الصحية عرض الحائط لأدور بحرية - نسبية - فى المدينة.. الشوارع، الحدائق، البيوت، المستشفيات، المحطات، غابات الأطراف، شواطئ البحيرات والنهر، وحيثما كنت أستطيع مدّ خطواتى. كنت أحس بأن يدا الله قد ألقت بى فى تجربة فى لحظة من لحظات تاريخ الرعب البشرى.. لحظة أول رعب نووى بلا حرب تعيشه الإنسانية. وأننى لمؤتمن على هذه اللحظة -

ككاتب – فى حدود طاقتى والمتاح لى (كونى أجنبياً) ومن ثم رحت أتعرض لما لا يعلمه إلا الله والسلطات العليا السوفيتية من جرعات إشعاعية. لم أستطع البقاء فى غرفة مغلقة النوافذ بينما الربيع الشهير فى كل الدنيا– «ربيع كييف» – يزدهر بتوحش.. يتأجج بخضرة كثيفة وزهور وطيور وثمار شتى تحت مظلة من الرعب النووى المحقق. الرعب اللامرئى الذى كنت فى حقيقة قلبى لا أخشاه، ربما لأننى لم أكن أحسه، وأكثر.. لأننى أوقن فى قرارة نفسى أننى ابن موت.. واحد من بشر قصار العمر يحيون فى العالم الثالث المكروب، فى الجنوب المتهالك، حيث القاعدة هى الشقاء والموت المبكر بينما الاستثناء أن يسعد بعض الناس ويعمرون. ورحت أجمع فى مفكرة صغيرة ما أراه جديرا بالملاحظة أثناء تجوالى بمدينة تعيش – بتكتم – تحت مظلة الرعب النووى. وعندما كنت أنظر إلى ما جمعته أجدنى لم أغادر جلدى.. جلد القصّاص.

لقد كنت أبحث عن القصص دون أن أدرى، أبحث عن

الواقع الفن فى ثنايا الواقع الدراج، لهذا كنت أتقافز فوق اللحظات لأنتقى منها ما يتلامس مع روح القص، أو يتآلف مع أصابع القص، ومن ثم أخرج عن دائرة المذكرات. فهى إذن: لا منكرات. لحظات رحت أجمعها. وأنا أمضى بين حنايا الربيع الملفوح بالاشعاع أو الرعب من هذا الاشعاع.. لحظات الربيع .

لحظات الربيع

عطش

مثل كثيرين.. كثيرين جدا وصلت إليهم الشائعة، سهرت أراقب أن ينقطع الماء فى منتصف الليل. لقد كان هذا مثيرا جدا لى أكثر من كونه مخيفا. ربما لأننى لا أتصوره.. فانقطاع الماء يعنى أن الاشاعة مؤكدة، أن التلوث الاشعاعى طال مصادر المياه.. يعنى أن الموت وصل إلى مياه الدنيير، أن السمك سينطرح ميتا على صفحة النهر، وأن دراما قاسية للبحث عن الماء ستشرع فى العمل من الغد، فى بلد الماء.

يغالبنى النعاس، اذ تعودت أن أطفئ النور واستسلم للنوم فى الثانية عشرة لأستيقظ مبكرا. كيف سأعرف بانقطاع الماء؟... تركت الصنبور مفتوحا قليلا لأسمع الخرير.، مقدرا أنه لحظة ينقطع الماء سينقطع سماعى

للخرير فأستيقظ متنبها بانكسار الرتابة. تكون دراما الماء قد بدأت، وأصحو لها. ما أغرب تشوفي هذا. وما أقسى توحشه؟!

إننى بالقطع لم أتمن المأساة. فقط كنت أتشوق إلى شئ ما يحرك هذا الركود القاتل لروحي: الحجرة الصامتة فى منزل الغرباء.. نفس الطريق فى الصباح، نفس العمل ونفس المعارف. نفس الطريق فى العودة، نفس الطوابير فى نفس المحال.. الطعام نفسه، والشراب نفسه. حتى النزوة تكرر نفسها بنفس التفاصيل .. ثم، السأم الذى ينتهي به كل شئ.. اكل أقرأ. أنام. وفى الأحلام لا تأتينى كييف قط، لا تأتى أبدا، فقط مصر ولحظاتها المندفعة بل المجنونة والمشعشة. ويغلبنى النوم.

عبرت فى نومى برزخا من تناوب النور والظلمة، ثم رأيتنى فى المنصورة.. فى شارعنا الترابي، ورأيت أمى وأخواتى البنات يتدافعن فزعات من مدخل البيت إلى الشارع. كن فى ملابس بيتيه، عاريات الأقدام، ويمسكن بأوان كبيرة فارغة.

ثم امتلأ الشارع بالناس الذين أعرفهم جميعا. كان الأطفال يبكون، والأوانى تتقارع، وتتصاعد الدمدمات: «العطش. العطش. العطش.» عندها أمسكت بعنقى شاعرا بالعطش يحرقنى، وكنت أختنق. ثم شاهقاً فتحت عينيّ.

كان نور الغرفة مضاء، ثم تبينت الخرير. وتذكرت الصنبور المفتوح. فجريت متخيلا أن يكون الماء قد أغرق الحمام والردهة. لكننى رأيت ماء الصنبور يذهب فى بالوعة الحوض بلا أثر. وقبل أن أغلقه، وجدتنى لا شعوريا أفتح للماء أكثر.. أكثر.. وأمد له يدى فيغمزها فى هذا الليل الدافئ من ليالى الربيع بدفء متدافع، وراحة.

ف. أ

«فالنتينا استيبانوفنا» المرتشية الفظة مسئولة المسكن العام رقم ١٤ التابع لمعهد ترقية الأطباء الذى أدرس به، انقلب حالها بين يوم وليلة تهيئًا لما تتوقعه فى عيد أول مايو. ولم يكن واضحا أنها عرفت بالكارثة.

إنها لم تهدأ لحظة فى النهار السابق ولم تنم ألا قليلا ليلة العيد وهى تزّوق المسكن المطوى على أسرار عشرات المخالفات والجرائم، مركزة فى الزواق على الأماكن المتوقع أن يمتد بصر عميد المعهد إليها فى زيارته المعتادة صبيحة يوم العيد.

صار المدخل يبرق وكذلك الردهات وصالة الندوات والكافتيريا، وغزت أصص الزهور كل الأركان، وفى الحوضين اللذين يحدان الدرج الصاعد نحو البوابة

اشرأب بمعجزة فالنتينية حقلان صغيران جميلان من زهور التوليب الحمراء اليانعة.

لقد كنت أتوقع ألا يأتى العميد، اذ لابد سيدعى مع العلماء الآخرين للمشاركة فى التخطيط لاحتواء الآثار الصحية للكارثة، وعندئذ ستعلم فالنتينا بما حل، بالكارثة التى انتشر اشعاعها يحمل نذرا كثيرة، واشاعات.. عن اخفاء الحقائق، والتدليس، وفساد الضمائر والذمم .

لم يأت العميد كما توقعت، وعرفت فالنتينا - لابد - بما حدث. ولما كانت علاقتنا على حرف إذ لم تمنحنى ما أستحقه من مكان فى المسكن، كالآخرين، لأننى لم أقدم اليها الرشوة، وشكوتها دون أن يستمع لشكواى أحد، قررت أن أتفرج عليها فى هذه اللحظة الحرجة.. لحظة ما بعد انفجار مفاعل نووى يمكن أن يفجر خبايا كثيرة.

كانت تجلس فى مكان العجوز مناوبة البوابة فى وقت الغداء - كما لم يحدث أبداً - مهمومة وملمومة على نفسها فى ضعف حتى أن جرمها الغليظ أوشك أن يختفى وراء المكتب. ونظرت إلى بعينى نمرة فى قفص،

فلم ألق عليها حتى السلام ووجدتنى أقول لها: «رائعة جدا زهور التوليب هذه التى تنبت وتنمو وتتفتح فى بضع ساعات يا فالنتينا استيبانوفنا».

أحسست أنها تكظم فى نفسها رغبة فى شرب دمى وأكل لحمى نيئا وسحق عظامى بغل بين أضراسها. ثم فجأة لانت ملامحها وابتسمت وهى تنطق: «أوه.. بالمناسبة.. لقد ذكرتنى.. أننى آسفة جدا للنسيان. لقد قررنا منحك غرفة مستقلة بحمام مستقل. وهاك المفتاح».

مكان للاختباء

اشاعة لم تكن مجرد اشاعة. أن ينهار قلب المفاعل المحترق ويحدث الانفجار الرهيب يوم ١١ مايو. الانفجار الذرى. لماذا ١١ مايو؟ هذه كانت حسابات العلماء. أما نحن الذين لا نعرف هذه الحسابات فقد خرجنا لنختار، فى صمت، مكانا نختبئ فيه يومها.

قيل: ستُفتح كل المخابئ الموجودة – بحكم قانون البناء – تحت كل الأبنية وسيهجر الناس الشوارع إلى الأنفاق.. أنفاق عبور المشاه تحت الشوارع العريضة وأنفاق المترو. وأخترت لنفسى ركنا من أركان نفق المترو تحت ميدان «تولستفا».

لماذا هذا المكان بالذات؟ الميدان التحت أرضي.. الذى يتناثر فيه الرسامون الهواه، وبائعات الورد، وعازفو البلاليكا، وبائعو الكتب القديمة؟

إنه المكن الذى أشرق لى فيه وجه جميل عزيز، فأشرقت روحى!

البطولة

معك يا «ناتاليا سيرجيڤنا» يأخذ الحديث اتجاها آخر، يصير رحبا رحابة التناجى ما بين كائن إنسانى - بالمعنى الشاسع للكلمة - وكائن إنسانى مثله. يختفى ضيق المساحة التى لا تسع إلا رجلا وامرأة عندما تتدفق بيننا الأفكار. وها أنذا أسعى اليك فى هذا الصباح متذرعا بزيارة أبيك، فى هذا اليوم من أيام بطولة الرجال الذين كان واحدا منهم. بطولة انهاء حرب أشعلها مجنون واحد، قاد شعبا يتسم بالتحضر والذكاء، ليحرق الدنيا كلها. واليوم ٩ مايو. اليوم نمضى تحت سماء «كييف».. لا حرب، ولكن يظللنا رعب آخر.. رعب خفى خفاء هذا الاشعاع الذى تدور حوله الحقائق والأكاذيب. أذهب إلى «البازار» متجها إلى ركن الزهور.. بضع زهور لك..

وبضع زهرات للبطل النائم.

ثمة شئ يا «ناتاليا» أحسسته يحيط بمواقع بائعات الزهور، شئ رقيق وشفاف.. محسوس لكنه غير مرئى. إنه الحزن يا ناتاليا.. حزن يلف الزهور (هل كانت ذابلة بعض الشئ على غير عهدها؟) حزن هامد فى صدور الفلاحات وهن ينادين على زهورهن بخفوت. لم يكنّ يتضاحكن كعهدهن وهن ينادين المارة ليشتروا وحزن كان يشوب سمت المشترين. كانوا لا يمكثون طويلا ولا يتفقدون الزهور بعناية كدأبهم. كانوا يشترون بسأم لمجرد أداء الواجب فى هذه المناسبة. وانتقيت لأجلك ثلاث زهور من التوليب الأحمر. حصلت عليها يانعة ندية، لكنها للأسف أصيبت منى فى الطريق.

فى حقيقة الأمر يا «ناتاليا سيرجيفنا»، لم أكن أنا الذى تسببت فى اعطاب الزهور.. فى سحق اثنتين منها على هذا النحو الذى قطع خيوط ضمها وفتحها قبل الأوان. لقد كانت امرأة عجوزا.. عجوز إلى الدرجة التى لم تستطع معها أن تصعد - مجرد تصعد - إلى عتبة

باب الترولى رغم أن العتبة لم تكن تعلو الرصيف الا بعشرة سنتيمترات أو خمسة عشر إذ لاحظ السائق وجود العجوز وحاذى الرصيف لأجلها بمهارة. لكنها لم تستطع رفع جسدها الضئيل هذه السنتيمترات القليلة. كانت ضعيفة ضعف ثمانين سنة أو أكثر.. ثمانين سنة شف لها الجسد الذى لابد كان فتيا قبل أن تشتعل النار السوداء، نار الحرب الثانية، ولابد أنه احترق بمرارة.. احترق كما لا ينبغى «لقد نلت ثلاثة أو سمة يا بنى.. دافعت عن بلدى ببسالة.. بسالة تليق بواحدة من بطلات العالم فى الرياضة».

كانت بطولتها واضحة فى الزمان البعيد يا ناتاليا وظلت ممهورة بثلاثة من أوسعة الحرب ، وميدالية بطولة عالم ذهبية فى الرياضة، وميداليات لبطولات شتى.. دولية، ومحلية. وكان كرنفال حفنات الذهب والفضة والبرونز يخفق ويخشخش وأنا أرفعها، خفيفة كأنها من قش، ضئيلة فى حضنى، إلى داخل العربة. كانت بطولتها واضحة نفس الوضوح لذكريات البطولة التى يحتفظ بها

أبوك يا ناتاليا.. هذا الرجل الذى لم يذهب العمر بما يؤكد أنه كان قويا قوة رجل فارع وعريضاً ومحباً للحياة والناس. مازال هائلا حتى فى سرير الشلل المباغت، وهذه الميداليات والأوسمة على صدر بذلته المعلقة على الحائط لصق سريره. «هل كان يصر اليوم على الخروج للاحتفال بالذكرى ولم يقدر؟».

«كان يصر، وأثنيناه عن ذلك بصعوبة. لم يقتنع الا بعد أن ارتدى بذلته وحاول المشى فترنح وكاد يسقط على الأرض لولا أننا أدركاه - أنا وشقيقى سيريوجا الذى كان هنا قبل أن تأتى بقليل. أثنيناه بصعوبة وهو يحاول من جديد ويشير مصغيا.. يردد أنه يسمع سيمفونية البطولة تذاع فى كل الاماكن، فى الشوارع والميادين ومحطات المترو. أثنيناه بصعوبة واكتفى بأن أعلينا له صوت المذياع الذى كان بالفعل يذيع «البطولة» فى هذه اللحظة». آه يا ناتاشا.. ما أقسى مآل البطولة فى زماننا، وأنت تومئين منفعلة ومواقفة وأنا أحاول أن أترجم لك شيئا من قصيدة شاعرنا* عن الخيول.. «الخيول التى

كتبت بدمائها تاريخ الفتوحات، ورسمت بسنابكها حدود الممالك. صارت تماثيل من حجرٍ فى الميادين وأراجيح من خشب للأطفال وفوارس حلوى وأحصنة من طين ورسوماً، ولم يتبق لها سوى عرق من تعب يتصبب ودنانير ذهبية فى جيوب هواة الخيل وحلبات المراهنة وفى نزهة السائحات اللائى يعلون ظهور الخيول». آه يا ناتاشا عندما تفاجئينني ببكائك وأنت المرحة أبدا. آه يا ناتاليا من هذا الاقتراب المواسى الذى يضيّق المسافة بيننا. آه يا ناتاليا سرجيفنا من هذا الصمت الذى يتجسد لنا فيه وجود الشعاع فكأنه يدوم، ليصيبينا بالدوار.

---

* قصيدة الشاعر أمل دنقل «الخيول»

كوب ماء

ألبى دعوة للغداء عند صديقى العجوز «أناتولى يفجينيفتش». وعلى المائدة البيضاء الصغيرة فى المطبخ شديد النظافة يجلس معنا حفيده «ماكسيموشكا».. يجلس جميلا ومضحكا كطفل فى الثالثة، ينادى جده: «ديا دوشكا تولا» ويناديني بصيغة التصغير والتدليل: «موخا ميدشك». ويصر على ذلك رغم تكرار انتهار جده له، ومحاولة انهائه عن مناداتى بهذا الشكل الذى لم يصدق «أناتولى يفجينيفتش» أنه يضحكنى ويسعدنى من طفل صغير جميل بطرافة «ماكسيموشكا». وبعد لقيمات يطلب الصغير أن يشرب، فيوقعنى بطلبه البسيط هذا فى مأزق مؤلم.

لقد لبى جده طلبه على الفور، لكنه بدلا من أن يملأ

كوبه الصغير بالماء البارد ملأه من صنبور الماء الساخن، ووضعه على المائدة طالبا من الصغير أن ينتظر حتى يبرد ثم يشرب. وبدأ مكسيموشكا يلح فى طلب الماد البارد. وعندما أبديت استغرابى راح الجد يؤكد لى: «إنه الاشعاع.. يقل فى الماء الساخن». ثم إنه ورطنى فى الشهادة، وقال للصغير: «وها هو الدكتور.. اسأله». فلم أعرف ماذا أقول، لكننى فضلت ألا يفقد الصغير ثقته فى تعليمات جده.

استسلم الصغير بعد تأكيدى لكلام «ديا دوشكا تولا». وانكمش مسندا ذقنه على حافة المائدة يتأمل الكوب أمامه ريثما يبرد. وبدا مستغرقا وحائرا بينما عيناه الملونتان الصافيتان تبحثان ببراءة كلية عن هذا (الاشعاع) الذى ربما يكون (صاحيا) لم يزل فى الماء رغم تسخينه!

شئ مريك

شئ مريك أن أجد نفسى بين هذه القبيلة من الناس الذين تتدفق دموعهم عندما يتأثرون حزنا أو فرحا. وها أنذا أحاول ضبط نفسى بكل ما وسعنى من إرادة واقفا على رصيف فى محطة قطارات «كييف»، أمام القطار الذاهب إلى الجنوب حتى «أوديسا» .. على الرصيف جدات وأمهات وآباه وأقارب وأطفال يتم ارسالهم بعيدا، أبعد ما يمكن عن كييف التى ارتفعت بها نسبة الاشعاع بعد حريق تشيرنوبيل، مما يهدد خلايا الأطفال الحساسة والرقيقة بالضرر. أطفال ما بين عمر الرضاعة وحتى سن المدرسة.. هذه هى الدفعة الأولى من الأطفال الذين سيتم ابعادهم عن المدينة.. يذهب بكل منهم الجد أو الجدة التى فى سن المعاش، أو الأم أو الأب الذى منح أجازة من

العمل، أو أى من الأقارب الذين لايقيدهم عمل أو دراسة فى المدينة.

على الرصيف ما بقى من الأسر للوداع، وفى نوافذ القطار - خلف الزجاج - أطفال وجوه وأيادى أطفال.. وجوه لاهية ووجوه تضحك ووجوه تبكى، وعلى الرصيف فى انتظار تحرك القطار يتماسك المودعون. ثم يبدأ القطار تحركه ويتوالى ذهاب النوافذ.. قطار أطفال. تتزاحم وجوههم الغضة وتودع أياديهم.. أياد صغيرة جميلة، طرية، لا تعرف بعد كيف تلوّح فى الوداع، وبعضها يعرف معرفة كأنها رفيف أجنحة الفراش.. لا، بل أجمل وأرهف من أجنحة الفراش. إنها أيادى أطفال، وكفى. وكأن خيطا رفيعا يصعب قطعه يربط بين الأطفال فى النوافذ الذاهبة وذويهم المودعين على الرصيف.. يتحركون مع القطار ملوّحين كاتمين الدمع. ويسرع القطار فأجدنى، بطبيعتى المربكة تلك، لا أستطيع السيطرة على دمعى. أجده يتفجر مع اسراع القطار وذهاب النوافذ الممتلئة بالأطفال الذاهبين. وأستدير نحو

حـائط أحـد أكـشـاك الرصـيـف، وهات ياعين.. أبكى لا أعرف لماذا بالضبط أبكى، لكنها كل أحزان العمر تتجمع فى هذه اللحظة وتدفعنى إلى البكاء الذى كلما حاولت كبحة يجمح أكثر. وأشعر بمن يمس كتفى فأستدير.. إنها جدة، تسألنى بحدب وتأثر: «طفلك يا بنى». فكأن الكلمة تؤجج حرقة البكاء لرجل ينسرق منه العمر وليس لديه أطفال، وربما لن يكون.. يشتعل البكاء، فتفهم العجوز أن النشيج يعنى الاجابة بنعم، وتضمنى مهدهدة:

«سيعود يا بنى. كلهم سيعودون. أيام قليلة فقط وسيعودون إلى قلوبنا». وأنفجر فى بكاء أشد ينتفض له جسدى كله.. تربت علىْ الجدة التى أخذتنى فى حضنها وهى تواسينى، بصوت أسمعه يتهدج: «كفى يا بنى. كفى. سيعودون. ان بكاءك مؤثر يا بنى. أنت تجعلنى أبكى. تجلعنى أبكى يا بنى». وانفجرت تبكى. فصرنا معا، على رصيف محطة قطارات كييف، فى هذا اليوم من أيام تشيرنوبيل الأولى: شاب عربى، وعجوز أوكراينية.. لا يعرف من يراهما، يقينا، أيهما يضم الاخر ويربت عليه بهدهدة.. لعله يكف عن البكاء.

لا، الروسية

أزعم قياسا على معرفتى بطعم الـ (لا) فى لغات أخرى، أن لا الروسية هى أجمل اللاءات جميعا. «نييت» لا ليست هكذا أبدا، بل هى شئ آخر.. توحى إلى بأنها فى حد ذاتها كلمة أنثى، تلك الأنوثة الروسية التى تكتنز أشياء عديدة فى وقت احد: جمال الشقرة الأوربية وبضاضة الشرق.. سخونة بنات السلاف وانطواء الثلج على آلاف الأسرار المخبوءة تحته. لا، التى ينصحك كل من عرف روسيا ألا تصدقها من أول مرة. فهى قد تعنى لا، وقد تعنى نعم. وقد تعنى نعم ولكن ليس الآن. أما (لا) من عند البنات فآه من هذه اللا.. لابد أن تكون قد أذابتك تماما. (لا) أجدنى على موعد معها اليوم، فى محطة قطارات كييف. المنظر الذى لم يحدث أبدا.. الزحام المضطرب والأطفال الجلى وجودهم فى الزحام.. أطفال فى أيادى الأهل، وأطفال ينتظرون على الأرائك، وأطفال فوق الحقائب لصق الجدران.. أطفال بقبعاتهم ومناديل

الرأس الاوكرايينية الملونة. أطفال لم تكن هناك وسيلة أبدا لاقناعهم بعدم اصطحاب قطيطاتهم أو جرائهم أو الجواريف أو القبعات. بل إن كثيرين منهم أصروا أن يرتدوا ما يعتقد الطفل أنه أحلى ما يمتلكه من ملابس.. بلوفر أحمر، رغم الحر.. أو قبعة شمس وقفاز شتوى، معا أطفال ورّد الحر خدودهم. وبدلا من أن تضحك لمناظر اللعب أو الحيوانات التى أصروا أن يحملوها.. تذبحك المناظر.. عرائس اللعب فى أيدى البنات ودلاء وجواريف البلاستيك فى أيدى الأولاد. أطفال لاهون فى الزحام. أطفال للسفر بعيدا عن أحضان الأمهات، ووضع الأيادى الصغيرة فى أيادى الآباء الكبيرة، وملاعبة الجدات، والتنزه مع الجد. أطفال للسفر. ولوحة الإعلانات الالكترونية التى تشير إلى القطارات الذاهبة. لوحة بطول جدار شاهق وعرضه.. تتابع فيا أسماء المحطات البعيدة والمواعيد والأماكن ولا لا لا لا لا. لكمة واحدة تتكرر مظلمة، وبطول الجدار وعرضه. لا، لم تعد هناك أماكن. وأطفال على المقاعد، أطفال على الحقائب، أطفال على الأرض. ويضيع منى جمال (لا) الروسية فى فزع الزحام.

نهاية الخط ١٠

مثل كل المرات التى اشتدت على فيها وطأة الشعور بالغربة خرجت وألقيت بنفسى على مقعد خال من مقاعد أتوبيس «خط ٣٠» - بجوار النافذه.. أطل عبر الزجاج.. أرى

الشوارع لم يعد يمشى فيها غير قليل من المارة، والحدائق لم يعد يرصعها مرح البشر، حتى المقابر صارت بلا أكاليل.. ثم تأتى بيوت أطراف المدينة، الخصيبة الجميلة المحوطة بحدائق الكرز والتفاح - فاكهة لن تجمع أبدا وستظل حتى تتساقط ذابلة وتحمل إلى مقابر خاصة فى ثلوج القطب. وأخيرا يمر الأتوبيس بمناطق غابات الصنوبر والبحيرات الصافية الصغيرة ودور الاستشفاء والمحطات النائية. هناك أقصد أصحابى الذين تعودت أن أراهم كلما أطبقت على عنقى أصابع

الشعور بالغربة. ما الغربة؟ لقد أجهدت نفسى لأحلل ما يمكن أن تكونه، ووصلت بعد تفحصى للاحتمالات الكثيرة أنها يمكن أن تكون العيش فى مكان لا تعطى فيه ولا تأخذ. عطاءاً حقيقيا وأخذا من المشاعر.. مشاعر لا يحتملها واجب اللياقة بل تتفجر بتلقائية وتنساب بلا عمد كأنها مياه الينابيع تتفجر لفرط اكتنازها تحت الأرض وتسيل إلى حيث ينتظره ويتلقفها المنخفض مرة تكون أنت النبع وأخرى تكون المنخفض. لكن الغربة ببساطة تجعلك شيئًا مسطحا، أو ناتئا ومحجوزا بسور عالى من الدلالات العميقة للغة، وارث تقاليد المكان وأعرافه، وخبراته الحياتية ومشاعره. من تعطى ومن يعطيك - حقيقة - وأمامك كل هذا السور؟ غربة. لكننى بالصدفة رأيت هذا السور ينهار أمامى بعدما ألقيت بنفسى مرة، من مرات الضيق، فى هذا الاتوبيس - خط ٣٠. لم أكن أعرف مساره، لكن اتجاهه بدا لى جديدا.. لم أطرقه. سرّت عنى مناظر الشوارع المحفوفة بالأشجار، والبساتين المتعاقبة والمقبرة المثقلة بالزهور، والبيوت الخشبية،

وحدائق الفاكهة من حولها، وغابات الصنوبر والبحيرات.
مقدمة بديعة لانهيار السور - سور غربتي - عند نقطة النهاية. فبينما الأتوبيس يدور منهيا مشوار الذهاب ومتوقفا للاياب رأيت بما يشبه المفاجأة فى هذا الطرف البعيد، أكثر من مائة طفل يتجمعون أمام بوابة حديدية مفتوحة تفضى إلى ممشى طويل يشق حديقة واسعة تظاهرها بناية ممتدة من طابقين. تشبه قصرا من القصور العتيقة. ظننت أن الأطفال فى رحلة إذ كانت معهم بضع شابات رجحت أنهن معلمات وأخذت أنتظر أن يبدأ تدفق الأطفال فى الاتوبيس، متخيلا ببعض الانتعاش والبهجة رحلة داخل اتوبيس يملؤه الأطفال كان انتظارى استطال حتى أغلقت الأبواب وبدأ الاتوبيس يتحرك فنظرت مستغربا إلى الخلف... رأيت لمة الأطفال لم تزل أمام البوابة مع الشابات الأربع أو الخمس.
وأسرع الاتوبيس خاليا عبر الطريق المرصوف بين الغابات، فتقدمت من السائق وسألته، أخبرنى أن الأطفال نزلاء لهذه المصحة الوقائية المخصصة لإبعاد الأطفال عن

مخالطة ذويهم المصابين بالسل. ويبدو أننا حقا نحس قبل أن نفكر، إذ وجدت نفسى أهبط عند أول توقف للاتوبيس وآخذ الاتوبيس الآتى فى الاتجاه المعاكس لأهبط فى المحطة الأخيرة.. أحادث الشابات فيلتم حولنا أطفال المصدورين، وأحس بهذا النبع القديم الذى أغلقته الغربة يعود يتفجر.

فقد كان واضحا أن احدا لايجئ إلى هذه البقعة النائية. وإن هذا الخروج أمام البوابة رغم وجود حديقة المصحة الواسعة، ما هو الا تعبير غريزى عن الحنين إلى الخروج من عزلة ما وكان الأطفال يقتربون رافعين وجوههم المستطلعة نحوى بينما كنت أحادث الفتيات اللائى عرفت أنهن يقمن برعاية هؤلاء الأطفال فى هذه المصحة. وأى شعور يتدفق؟ عندما تحس أن وجودك مجرد وجودك، يمنح هذه القطع البشرية الصغيرة الجميلة شيئا يجعلهم يضطربون من حولك فى مرح وينظرون اليك فى تشوف جميل. فرح. مجرد وجودك فرح. فرح فى هذه العيون الصافية الملونة.. فرح فى عشرات الوجوه الوردية

الجميلة.. قطع قطع قطع.. قطع بشرية صغير أخذت لداعى مصلحتها - التى لن تقنع بها أبدا - من مهادها الصغيرة وأحضان الأمهات والجدات وحنو أذرع الآباء.. أخذت من ألفة الأهل والبيوت لتودع فى هذا الطرف البعيد.. النائى بين الغابات. تعبر عن رأيها فى هذا الأخذ وهذه العزلة بهذه الطريقة الغريزية من الخروج أمام البوابة والتطلع إلى الاتوبيس الوحيد الذى يصل إلى هذه البقعة. لعله يأتى بشئ. وأجئ أنا.. أصير الشخص الذى ما أن يلمحوه داخل الاتوبيس القادم حين يتهللوا، وأسمع أصواتهم الصغيرة الجميلة وهى تتسابق فى هذا البراح: «جاء. جاء نعم هو هو. أنا شفته. هو . هو. جاء «وأهبط إلى أصحابى. مائة قطعة بشرية صغيرة تجد فى زيارتى ما يطربها.. هذا الطرب الجميل المنمنم الذى يعطينى من المشاعر ما يساوى الحياة ذاتها. وهل توجد حياة إنسانية بدماء باردة فى العروق؟. كانوا يدفئون دمى فى كل مرة فكأننى أنبعث من تحت ركام جليد الغربة، وأحس بشئ ما من الاكتمال فى وجودى يجعلنى أنشط للوجود.

أضحك وأحلم وتتألق فى ذهنى بهجة مشاريع جديدة. نفس الشعور بالتأهب للحياة الذى كان يدب فى عروقى أثر مثل هذه اللحظات فى مصر.. فى أعقاب تمريضى لأمى، أو حملى لأبى الواهن عبر الطريق، أو عند العودة من زيارة واحدة من أخواتى البنات أو الأهل فى صباح العيد، وعندما كنت أتلقى خبر شفاء مريض أعالجه كانوا يعطوننى هذه اللحظات، وكنت فى الاتوبيس - خط ٣٠ أسعى إلى نقطة النهاية لأنال مثلها.. أتلقى من القطع البشرية الصغيرة الجميلة عطاء كل مرة. وتلح نفسى على هذا العطاء اذ تقبضها رؤية المقابر بلا أكاليل وشجر التفاح المهجور لحد التغضن. وأصل فتشدد من القبض على قلبى رؤية المكان بلا أطفال، والبوابة الحديدية موصدة، ولافتة صغيرة على البوابة تقول: «الاتصال بداخل المصحة عبر الهاتف رقم...». وأذهب لا تصل من كشك التليفون المجاور للبوابة. فأعلم أن الأطفال مستبقين فى الداخل لداعى الوقاية من الاشعاع وأن الزيارة محددة: للأهل فقط. للاهل فقط؟! وأخطو فى هذا السكون

ما بين الأشجار ومدار الأتوبيس الذى ذهب ولم يرجع بعد. وما بين السور والبوابة المغلقة أمضى وأتوقف.. أنظر عبر قضبان البوابة إلى بناية المصحة هناك. خامد هو دمى كأنه برد فى عروقى وسط كل هذا الخلاء الساكن، ونوافذ المصحة التى ألمحها هناك، أحس بوجوه الأطفال المحبوسين تتطلع من خلفها لكننى لا أراهم. وأعرف أنهم أيضا لا يروننى. أى عزلة مضاعفة، أى غربة أيها الفزع اللامنظور؟.

أهم شئ

فى سهرة بيتية بأحد مساكن الدراسين الأجانب بدا الدكتور إبراهيم دارس التحاليل الطبية منتبها شديد الانتبهاه وهو يستمع إلى الدكتور أحمد دارس علم الاورام يحكى عن الجثة التى حضر تشريحها بمعهد السرطان وكانت لواحد من ضحايا تشيرنوبيل. حكى عن معاطف النايلون التى ارتدوها قبل التشريح، وأقنعة التنفس، والقفازت. حكى عن عملية القياس الاشعاعى لكل أجزاء الجثة. ثم حكى عن الملاحظة الأساسية، نتيجة التشريح، وهى: النزيف الداخلى الحاد.. فى المخ، فى الرئتين، فى الأمعاء، فى حوض الكلى، وفى كل الأماكن.

عندئذ وجه الدكتور إبراهيم سؤاله الذى وضح أنه ظل يقلقه: «لكن .. هل تساقط الشعر كما فى حالات التعرض

لجرعات العلاج النووى العالية؟! وهنا بدأ طبيب الأورام يتذكر... فلم يتذكر إلا أن الجلد كان خاليا تماما من الحروق، أما الشعر؟. وثار الدكتور إبراهيم ثورة عنيفة صارخا فى أحمد: كيف لا يتذكر هذا الشئ الهام وهو طبيب أورام.. كيف لا يتذكر؟!. ويبدو أن الدكتور أحمد كان يميل إلى الهدنة أكثر من كونه يخبر بالحقيقة، اذ قال بهدوء: «كان شعره سليما كله. كان سليما». وهنا تحسس الدكتور إبراهيم شعر رأسه الخفيف الموشك على الصلع وتنهد نابسا فى ارتياح: معقول.

ثوب الحمام، شال الحمام

سيد الكائنات مصابة أليم. سيد الكائنات غارق فى حزنه. سيد الكائنات مأخوذ بالكارثة. سيد الكائنات الان يودع أطفاله على أرصفة محطة القطارات الذاهبة يتزاحم بهم على نوافذ حجز الطائرات. يذهب ليقيس ما أصابه من اشعاع أمام أجهزة «السيسمو التى انتشرت فى كل الأماكن.. المستشفيات، المصانع معاهد العلم.

سيد الكائنات منطو على همه.. يفكر فيما سيكونه الغد. كيف سيأتى المواليد أن أتوا فى أى شكل سيكون السرطان. متى ستكون البداية. كيف يعد لها منذ الآن. سيد الكائنات متعب. وفى ميدان «الفولاسفا» يجوع الحمام الذى يغطى طرقات الحديقة. الحمام الذى اعتاد الناس يتقاطرون على مدار اليوم لزيارته. أطفال مع

أمهاتهم والآباء. عاشقات صغيرات بصحبة العشاق. وعجائز صفاهم طوال العمر من كدر الانشغال. كل هؤلاء كانوا يجيئون.. يأتون ببقايا الخبز وأكياس الحبوب. والحقائب القماشية المليئة تحملها أيادي العجائز المرتعشة. تحفن الأيادي وتنثر. وتحفن الأيادي وتنثر. الآن انطوى العشاق، وخبأت الأمهات أطفالهن من الرعب الذي لا يبين، وتسافر الجدات بعيدا عن كييف مع الأحفاد. ويجوع الحمام. ليس الجوع الذي يقتل. لكنه الجوع الذي يتبدى عندما تصل إلى ساحة الحمام امرأة عجوز. واضح أن ليس لديها حفيد لتسافر به فهي تأتي حاملة حقيبتها القماشية كعادتها. فيتكاثر حولها الحمام. يتزاحم حولها ويخفق بأجنحته وهو على الأرض أو يقبل مرفوفا يهبط من فوق الأرض القريبة. وعندما تمتد يدها وتحفن من فتيت الخبز وترمي، يهجم الحمام. يتفاتل على النثار ويتخطف بمناقيره الفُتات. وتنشب المعارك الصغيرة المريرة في ساحة الحمام. وتتحرك العجوز لترمي بحفنات أخرى في بقع أخرى، لتفض صغير المعارك.. مرير

المعارك، فيزحف خلفها الحمام مسرعا على الأرض فى تزاحم، أو طائراً حولها فى ارتفاع خفيض. وتبدو العجوز وهى تتحرك فى ساحة الحمام وكأنها تجر أذيال ثوب من حمام، وتتطاير حول أكتفاها أطراف شال من حمام.

اللحظة

أشعر مع تصاعد الاحساس العام بالكارثة برغبة لا تقاوم فى رؤية المرأة التى كنت أعثر عليها دائما عند جادة «نيفكى»، بالقرب من ضفة العمارات اليمنى فى شارع «ساليوتنايا». المرأة التى تبدو مبتسمة دائما، بل بالنسبة لعمرها وقواها تبدو متهللة.. فهى فى فرح دائم وتكرر على سمع كل من تلقاه، بحماس، وكأنها تلقت الخبر لتوها: «هاه.. تهانئى تهانئى. لقد انتهت الحرب. اليوم ٩ مايو انتهت الحرب. تهانئى تهانئى. وفى كل مرة كانت تشق قلبى بتهللها هذا،

باستبقائها الغريب لهذه اللحظة التى مضى عليها أكثر من أربعين سنة. اللحظة التى لا تصدق بالنسبة لواحدة مثلها – لابد أنها اكتوت بنار الحرب الثانية

العظمى. لحظة انطفاء الحرب.

وأبحث عنهـــا لأراها فى هذه اللحظة من لحظات تصاعد الشعور العام بالكارثة. أتخيل ردود فعلها التى يمكن أن تتبدى فى الكلام.. أتخيل المفارقة فى «تهانئى. تهانئى» .. أتخيل، وأتخيل ما وسعنى التخيل.. فالمرأة التى أبحث عنها عند جادة «نيفكى» بالقرب من ضفة العمارات اليمنى فى شارع «ساليوتنايا»، تبدو كأنها .. تبخرت.

الصيف

وما الصيف إلا ربيع تشتد حرارته فى كييف. خضرة أكثف وحرارة تقترب من الخامسة الثلاثين مئوية فى النهار. لكنها تبدو لمن لم يعتدها كما لو كانت أربعين درجة بسبب الرطوبة التى ينشرها تنفس الغابات والحدائق والبحيرات ونهر الدنيبر الفسيح المتفرع مدينة غارقة فى البساتين حتى ليشاع أنها أكثر مدن العالم خضرة.

وفى هذا الفردوس الدافئ. بدل الناس عاداتهم التى كانوا قد اعتادوها فى أصياف مضت قبل تشرنوبيل. فالبحيرت هجر شواطئها المستحمون والغابات لم يعد يغشاها البشر. والحدائق صارت بلا زوار. ولا أطفال فى كييف. اذ تم ترحيل الأطفال إلى معسكرات الشواطئ البعيدة وقاية لرقيق خلاياهم مما قد ينفثه المفاعل المنكوب. لقد حشوا فوهته بسدادة من الرمل والرصاص

والدولوميت والبورون كانت تلقيها الطائرات المروحية من الجو. سدادة وزنها خمسة آلاف طن، فهل انجاب الرعب الخفى؟.

قيل أن بقايا التفاعلات الحرارية قد بدأت تخمد. لكن مستوى الاشعاع عند المفاعل ظل عاليا. ومع ذلك زال توتر هائل بزوال احتمال وقوع انفجار نووى إذا احتمل قلب المفاعل ثقل السدادة فوقه، واستجاب لتبريد الآزوت المسيل فى النفق الذى حفر تحته. وكان التابوت يرتفع: سوران هائلان من الخرسانة المسلحة أُوصِلا بقاطرات ضخمة ليحيطا بمبنى المفاعل. توقف الحريق ولم يتوقف تماما الإشعاع ولا الإشعاعات التى تحيط به. وكان حريق آخر لا يزال يشتعل فى الاذاعات الموجهة من الغرب.. عن ارتفاع عدد الضحايا، عن ترحيل الأجانب من المدينة، وعن نداءات توجهها بعض البلدان الأوربية الغربية وأمريكا إلى رعاياها بعدم التوجه إلى كييف خاصة.

وامتد الصيف ثقيلا بعد رحيل معظم الدراسين الأجانب عن مسكننا الجماعى (الأويشى چيتى)، إن خوفا

من الاشعاع وإن عودة إلى سابق عهد الاجازات الصيفية يقضونها في بلادهم. ثم أن كل زملاء المسكن من السوفييت غادروه أيضا، ولأسباب شتى: التصييف أو التطوع في معسكرات العمل. وعبر الظل والحرور والزهور والخضرة والثمار المنسية عمدا على الأشجار، وحيثما كان الاس الذين مكثوا في المدينة، كنت أمضي مواصلا جمع لحظاتي. لحظات الصيف.

لحظات الصيف

قيام

فى العادة عندما تصعد إلى الباص امرأة كهذه، يقوم من مكانه ويتركه لها شاب واحد. أما الآن. فمع صعودها يسارع بالقيام لاجلاسها ثلاثة، بل أربعة.. بل خمسة، خمسة رجال نهضوا فى وقت واحد لتجلس امرأة. امرأة تحيط بها النظرات كاتمة كل ألوان الانفعال. امرأة تمتلك إمكانية الإجابة على السؤال حول مصير البشر فى بقعة لفحها الإشعاع إلى هذا الحد. امرأة تحمل بشارة النجاة، أو إشارة حلول الكارثة فى أقصى مداها.. فهى.. حامل.

راحه

كل شئ فى كييف يستحم حتى تزول عنه ذرات الغبار المحملة بالاشعاع.. كل شئ تُسلط عليه خراطيم المياه القوية: الشجر، واجهات المبانى، ورد الجنائن، عشب المدارج، الأرصفة، المركبات، الأسفلت. والبشر، ينبغى أن يستحموا فور رجوعهم من الشوارع، ويبدلوا ملابسهم بأخرى مغسولة. حتى لو خرجوا وعادوا مائة مرة، مائة مرة ينبغى أن يستحموا ويغيروا ملابسهم. كل شئ فى كييف يستحم فى هذا الصيف بلا انقطاع، وتحمل البالوعات آلاف آلاف أطنان مياه الاستحمام إلى أين؟... إلى النهر؟.. إلى الدنيير الفسيح، فيستحم سمك النهر فى الماء المثقل بذرات الغبار المثقلة بالاشعاع. ألهذا حرموا

الصيد فى مياه الدنيير؟. ولم تعد أسماك النهر الحية تُطرح للبيع فى الأسواق؟ عله يستحم براحة.. يستريح قليلا فى الماء المخيف سمك النهر.

قتل

ما الذى توحى به بالونة؟.. طفل فرحان؟.. يوم عيد؟.. طقس احتفالى؟.. لكن هذه البالونة بدت شيئا آخر.. بالونة كبيرة منفلتة بخيطها. بالونة مهجورة من يد طفل أُخذ على عجل، أخُذ برعب لا يفهمه. بالونة مكثت أياما طويلة هائمة على طريق تشيرنوبيل.. لم تنفجر بفعل شمس الصيف الحارة.. لم تطأها - لسبب غير مفهوم - أى من إطارات وجنازير المركبات التى مكثت تدب لا حصر ذاهبة إلى مركز الكارثة أو عائدة منه. لم يمسك بها سائق أو راكب لسبب أن النوافذ لم يكن مسموحا بفتحها فى هذه البقعة المثقلة بالاشعاع. بالونة غريبة صارت من معالم الطريق.. تتحرك بين المركبات، يحملها

هواؤها قريبا من الأرض، ويطوّح بها بطيئا هواء الدنيا، فكأنها تترنح. بالونة صارت مؤلمة غاية الإيلام لكل من يراها. ومتأبية على الانفجار كأنها تصر على اعتصار القلوب المحزونة.. روح هائمة بعذابٍ يعذب من يراها.. عذاب، لعله كان المبرر لأن يجن أحدهم مرتين في آن واحد.. فقد فتح نافذة السيارة، وأطلق على البالونة النار.

معارضة

فى كييف يلتقى المعارضون فى حديقة «شابشنكا»، وتحت جناحى الشاعر تلتم الصور التى يستأثر باهتمامى من بينها الرجل فى اللون الأسود.

لقد ساد الأبيض فى صيف حديقة «شابشكنا» هذا العام، ليس فقط لأنه لون قمصان القوميين الأوكرينيين المطرزة الطوق والأكمام، ولكن أيضا لانتشار القناعة بأن الأبيض مقاوم للإشعاع إذ كان يرتديه عمال المناجم الذين حفروا نفقا للآزوت المسيّل تحت قلب المفاعل المنكوب، ولا زال يرتديه اللذين يبنون التابوت الخرسانى حول المفاعل. لهذا كان الرجل فى اللون الأسود متميزا بشدة وسط بياض القمصان وخضرة الحديقة.

كانوا فى الحلقات واقفين أو جالسين يتظاهرون باللعب

أو الفرجة على مباريات الشطرنج الودية والتقليدية فى هذه الحديقة، بينما كان الحديث يتساحب عن الغبن اللاحق بأوكرايينا وعن المفاعل الكارثة الذى زُرع بالإكراه وباستبداد موسكو فى أرض الأوكرانيين، بل فى أعز أراضيهم.. فى مقاطعة العاصمة «كييف»، وعلى الرغم من معارضة ابنائها من سياسيين وعلماء. وكان بطلى الذى أتابعه، فى الأسود، يتنقل صامتا بين الحلقات.

كان واضحا أنه وضع كل ما فى داخله فى هذا الأسود على جسمه، وخرج مشغولا تماما بأسوده، وبالتفات الناس إلى هذا الأسود. كل شئ يرتديه كان أسود: القميص، والبنطلون، والحزام، والحذاء، حتى فانلته الداخلية التى تطل من صدر قميصه المفتوح قليلا كان لونها أسود. ورجحت أن جوربه أسود كذلك، وأخذت أراقب يديه بدقة منتظرًا أن يُخرج منديله.

. كان لون المنديل: أحمر!!.

أجيال

شهقت العجوز متوقفة عندما مررنا بها فى ممشى شارع «شرباكوفا» الظليل. وقد كنا آتين من السوق نحمل سلال الفراولة الممتلئة وسمك النهر الصاحى فى مياه الدلاء التى نحملها فيما بيننا، اثنين اثنين. شهقت محدقة فيما نحمل ثم ابتعدت مفزوعة توسع لنا الطريق لنمر. وسمعناها تهمس: «المجد لله.. فراولة؟ وسمك؟ مجانين. مجانين»

«مجانين».. سمعنا الكلمة ورددناها بضحك، ثم توقفنا إذ وجدنا من بيننا «تايو» الزائيرى يتوقف ويتوجه بالحديث ضاحكا إلى المرأة التى تضاعف ذعرها: «مجانين؟ نحن لسنا مجانين يا بابوشكا.. نحن عاقلون جدا، ودقيقون جدا، وكل شئ لدينا محسوب بدقة

الكومبيوتر. وعاينى بنفسك. عاينى» ثم وجدناه، يخرج من جيبه الخلفى رقيقة الآله الحاسبة الصغيرة. فأنزلنا عنا أحمالنا والتممنا حوله وحول المرأة، مقدرين أن المزحة ستتبسع.

وبالفعل اتسعت المزحة.. اتسعت إلى درجة التورط، إذ سرعان ما أقبل مارة آخرون من السوفييت وتوقفوا. ووجدنا أنفسنا محاطين بدائرة بشرية واسعة تريد أن تعرف كيف حسبناها بدقة. كيف لم يرعبنا أن تكون الفراولة مشعة أو سمك النهر ملوثا بالاشعاع. وصرنا نعاون «تايو» فى تغذية حاسبه الآلى الصغير بالأرقام!!.

كنا سبعة من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.. «تايو» من زائير، و«ريتشا» من الكونغو، و«على» من اليمن، وأنا من مصر، و«كاى» من كمبوديا، و«مناف» من بنجلاديش، ومن كولومبيا «خوان». ورحنا نملى متوسط الأعمار فى بلادنا، وكان الناتج: ٣٦ عاما للفرد. بينما كان متوسط العمر بيننا ٢٧ عاما. فلو كان سرطان الاشعاع يقتل فى عشر سنين، فإننا سنموت قبلها بوسيلة أو بأخرى من

وسائل العالم الثالث الشائعة: الأوبئة، المجاعات، الفيضانات، القحط، السجن، والحروب المحلية. أليس كذلك؟.

لم تقتنع العجوز الاوكراينية بحساباتنا وأصرت على كوننا مجانين نعرّض أنفسنا بأنفسنا للتهلكة. ثم ألقى أحد الواقفين بما تصور أنه يفحمنا.. قال، إن تأثير الإشعاع يظهر فى الأبناء وأبناء الأبناء.. فى الأجيال التالية. الأجيال التالية؟- رددنا الكلمة بضحك ونحن نعود إلى المضى قدما بأحمالنا الثمينة، زهيدة السعر، التى خشيها الأوكرانيون وأقبلنا نحن عليها. وكان صدى السؤال يتردد فى أفق كل منا بجد وضحك: وهل حقيقة ستكون منا أجيال تالية؟.

الأبراص

أهداني «أركادي بيتروفيتش» المولع بالالكترونيات لحد البراعة ولحد الجنون، جهازا صغيرا من أجهزة قياس الإشـــعـــاع. جـــهـــاز «يدوي» خـــرج من بين يديه في أيام الكارثة بالعشرات. وكان هذا المجنون البارع يهديها ولا يبيعها، وإن كان يقبل لقاءها الهدايا: أجهزة الكترونية أخرى، أو كتبا عتيقة، أو أنتيكات قديمة من البورسلين وهو لم يأخذ مني شيئا على العموم، مكتفيا بأن يضم إلى حلم حياته - زيارة الأهرام - صديقا مصرياً يصحبه في القاهرة.

صرت أحمل الجهاز ليل نهار، ولثلاثة أيام كاملة.. رغم أن العـــداد لم يكن يُظهـــر أكـــثـــر من نسب الاشـــعـــاع المنخفضة المعلن عنها، إلاّ أنه كان يبدأ في الزقزقة

والصرير مع اكتشافه لأصغر جرعة اشعاعية.. في حذائي بعدما أعود من الشارع، وفي شعر ضيوفي وأحذيتهم، وعند سفل الباب وعتبة النافذة، ثم في عشب الأرصفة وجنبات زهور الحدائق وتحت الأشجار.. يصر ويزقزق.. صوت صغير قميئ، متداوم مثل صوت الأبراص الذى يقودنا إلى اكتشافها على الحيطان.. ملساء، فاتحة، مقززة، وجافاني النوم. حملت هدية أركادى بيتروفيتش لأردها إليه وكنت أمسك باللفافة التى تضم الجهاز كأننى أمسك بجراب حية سامة، من طرفها ومبعدا اياها عنى.. عن سمعى. وكنت أرتب ما سأقوله.. إلى الجحيم بهذا الجهاز الذى ملأ حياتى بالأبراص، من أول الورود وحتى النافذة.. إلى الجحيم، فمثلى يفضل أن يموت فى هدوء لامرئي، على أن تسقط داخل ملابسه واحدة من الأبراص.. ولو صغيرة لا تؤذى.

غراب غراب غراب

عندى شهود على أننى أول من أطلق حكاية الأخذ بحيوية النباتات ووجود الحيوانات البرية والطيور كمقياس لعدم خطورة الاشعاع.

كان ذلك فى قسم اللغة الروسية، عندما وجدت مدرستى «نينا نيكا لايفنا» فى كرب شديد مع أول أيام تشيرنوبيل، وأردت أن أطمئنها على سلامة كييف فاخترعت لها الحكاية. ولما أطلت بناء على طلبى من النافذة ورأت الخضرة يانعة وكثيفة فى كل المدينة وسمعت شدو الطيور فى الشجر القريب جنّها الفرح. طارت فى أرجاء المعهد تخبر الجميع بأن لا خطر هناك لأن الطيور تغرد والخضرة مازالت فى عنفوانها. ولابد أن الحكاية دارت لتنتشر فى كييف كلها. لهذا أشعر بالزهو عندما

أجد عجوزا يتصايح مغالبا وهن جسده، ويتهلل نافضا ثقل العمر، يشير إلى السماء ويهتف: «غراب غراب غراب» إذ يلمح فى الأفق غرابا يطير. ولكم كان سواد الغراب القطيفى جميلا ومضيئًا فى هذه اللحظة بالفعل. حتى أننى هتفت معضدا فرح العجوز: «غراب غراب غراب» ولم لا؟ إنه اختراعى، ولدىّ على ذلك الشهود.

قراءة ما

لكم صرت أفتقد إنسانية الأحذية مع نهاية الصيف! إنسانية الأحذية؟ نعم، لم أفكر فى ذلك أبدا قبل تشيرنوبيل. بعدها، ترامى أمامى عالمها المؤثر عندما توّجب على الجميع خلع أحذيتهم خارج الأبواب اتقاء لنقل ما لملمته من أرض الشوارع المفتوحة من غبار مثقل بالاشعاع.

كنت أخرج إلى الردهة الطويلة فأوخذ بما تثيره من مشاعر تجمعات الأحذية خارج الأبواب. كل ما نعرفه عن غطرسة إنسان أو غروره أو عدوانيته أو حقده أو لطفه أو أدبه.. كل هذا يختفى عند الحذاء.. يتجرد الحذاء تجرد الجوهر المؤثر للضعف الانسانى الذى يتجلى فى جزء من الإنسان ننظر إليه منفصلا عما حوله.. أذناً أو خداً، أو

أصبعاً، أو قدماً. ولكم قرأت فى تعابير الأحذية..

هذا الحذاء المدعوك ببؤس يخص «كولا» الجهم، وهذا المائل كزورق يغرق هو حذاء (المتفذلك) «الكساندر»، وهذا المعقود رباطه (بلعبكة) طفلّية هو للعبقرى مارسيل، وهذا النسائى الهش لناتاشا السمينة. أما أحذية الأطفال فلكم تجرح القلب بوداعة النمنمة. لم أر حذاء مستفزا ولا عدوانيا ولا شرير الطابع أبدا على العكس دائما من مظاهر أصحابها، وكنت اختلق مبررات بقائى فى الردهة لأواصل هذه القراءة.

ما أبأس الحذاء الوحيد أمام الباب، هذا رجل وحيد. وهناك أيضا نساء وحيدات. وهنا امرأة بلا رجل مع طفلها الصغير. وهذه أسرة من ثلاثة أفراد. وهنا يجتمع على العشاء خمسة رجال جاءوا لزيارة صديقهم. وهنا امرأتان.. فيم تتكلمان فى هذا الوقت من المساء؟ والصيف يوغل. ويتقلص شيئًا فشيئًا عالم الأحذية.. ينحسر فيثير فى نفسى الوحشة، ما أغربها من وحشة.

فى البداية سافرت أحذية الأطفال إلى معسكرات

التهجير بعيدا عن المنطقة المشعة. ثم سافرت أحذية الطلاب الأجانب إلى بلادهم البعيدة فى اجازة الصيف. وذهبت أحذية النساء الوحيدات والرجال المتوحدين إلى شواطئ البحر، ربما إلى شواطئ البحر. وتوالى رحيل الأحذية. حتى لم يبق إلا حذائى وحذاء. «آنا جريجوريفنا» عاملة النظافة العجوز فى المسكن.. آه ما أكثر حزن حذاء «آنا جريجوريفنا» التى تنام وحدها فى غرفة المخزن.. حذاء رجالى كالح ومتهالك.. كبير وموحش مثل بيت قديم آيل للسقوط يسكنه - وحده - عجوز ليس له فى الدنيا أحد.

الخريف

لم أكن رأيت خريفا كهذا، وهو فى الروسية مؤنث لاسم يقرن بصفة الذهب: «زالاتايا أوسن»، أى الخريف الذهبى أو الخريف الذهبية، يُكّنى عنه بفتاة رائعة الحسن. وهو خريف ذهبى حقا. بدا لى وكأن الأوراق لا تذبل فيه، وإنما تتلون، ثم تتساقط عن الأشجار قبل أن تزول عنها ألوانها البهية. وأى ألوان؟! كأنها لوحة حية من الأخضر المشرق إلى الأصفر الكهرمانى إلى الأحمر النبيذى وهناك البنفسجى والبنى أيضا. تكتسى الأسوار والحيطان باللون الأحمر النبيذى للعنب البرى. وتصفر فاقعة أوراق شجر الحور والدلب. ويصير شجر الشوح بنفسجيا. أما أشجار الكستناء فإنها تصير بنية فاتحة. مهرجان من الألوان يتفجر قبل أن تتساقط الأوراق تاركة الأشجار عارية والطرقات تحتها مفروشة بأبسطة كثيفة من الأصفر الذهبى. نعم، خريف ذهبية. احتفال من نوع

ما .. فيه بهجة ظاهرة ملونة، وإن انطوى على حزن قاتم. تماما مثل الاحتفال الذى تم بمناسبة اكتمال صب التابوت حول المفاعل الكارثة. ففى السادس والعشرين من سبتمبر، فى الساعة الخامسة مساء أعلن رسميا عن غلق التابوت. لتصير كلمة «ساركوفاج» - أى التابوت وكأنها ابتدعت فى اللغة وتم الاحتفاظ بها طويلا لتوقف فى نهاية الأمر على تابوت تشيرنوبيل خاصة. فما تكاد الأذن تسمع الكلمة حتى يتداعى إلى الذهن على الفور تابوت تشيرنوبيل لا تابوت آخر غيره. فهو ليس مجرد خيمة خرسانية تغطى المفاعل المنكوب. لكنه هيكل معقد من الصلب والخرسانه يحبس فى قلبه المفاعل بطريقة تسمح بالإطلال دائما عليه. وأعلن أن التابوت الذى جرت متابعته ينفث إشعاعا أقل بكثير من تلك التى تخرج من المحطات الكهرو - ذرية العادية فى هذه الأثناء بدأت عودة الأطفال من معسكرات الشواطئ. معسكرات التهجير الكبير. وكانت نسائم الخريف الذهبى ترق. فلا برد ولا حر. وعلى الماشى المفروشة بذهب الخريف الهش، الخطر، الذى

كانوا يحذرون منه لتشبعه بالاشعاع، كنت أواصل طريقى باحثا عن اللحظات الملونة التى لم يختف الحزن فيها.. بل الشك والريبة لصق الاطمئنان. تلك لحظات الخريف.

لحظات الخريف

الإجابة

أتجه كأنما بدافع غريزى لأشاهد فيلم «شابشنكا» التسجيلى عن تشيرنوبيل للمرة العشرين أشاهده. وأكاد أجزم أننى فى كل المرات مكثت ألاحظ مجئ المرأة العجوز التى يخالط عقلها شئ كأنه من جنون. دائما تصل فى اللحظة الأخيرة قبل اطفاء النور. ودائما تقتعد المكان الأوسط فى الصف الثالث من الأمام.

تأتى لقطة محاكمة عالم الهندسية النووية الشاب فيتسع مجال انتباهى: شاب هو، فارع ووسيم.. يقف مطرقا إلى جانب منصة تحاكمه فى قاعة تغص بالعاملين فى انقاذ تشيرنوبيل، جاءوا بملابسهم البيضاء وأزاحوا عن وجوههم قليلا أقنعة الوقاية من الغبار المشع، فى أمان المكان الذى تم تطهيره للتو. ويلقى أحد المحكمين

بسؤاله عن انسان، شاب وعالم، ما أن يجد الحريق مشتعلا فى المحطة التى يعمل بها حتى يسارع بالفرار. فرّ إلى مسافة خمسمائة كيلو مترا بعيدا عن مكان الحادث. يسأل المحكم، ويضيف إلى سؤاله: ما رأيكم فى إنسان يأتى بمثل هذا التصرف؟.

تدور الكاميرا ببطء على وجوه حضور الجلسة.. ببطء وصمت لا يلبث حتى يتمزق من خارج (الكادر).. من ظلمة الصالة، من وسط الصف الثالث فى الامام، يرن صوت المرأة العجوز القوى مع ذلك: «اسكاتينا»، ومعناها: بهيمة. تكررها: «بهيمة». وتؤكد على ذلك من جديدك «نعم. بهيمة». ثم تندفع كريح غاضبة خارجة من الظلمة.

أنين احتضار بشرى

كان واضحا أن الكلب سيلقى حتفه على هذا النحو من الهرولة العمياء والمضطربة إذ كان يتخبط فى مساره مع قواعد الأكشاك على الرصيف وقوائم مظلات الاتوبيس.. يقترب فى اندفاعه المائل والمترنح من أقدام الناس الذين يتراجعون على الفور، بفزع، ينتقل إليه فيفزع هو الآخر ويبتعد نازلا عن الرصيف إلى نهر الشارع حيث يشكل منظرا نادرا فى مدينة أوربية لا تعرف كلابا ضالة تضيع تائهة على الأسفلت. وفى وسط الشارع الواسع يمضى مندفعا هذا الاندفاع المتهالك وكأنه يهبط على جسر شديد الانحدار، يقطع الشارع بالعرض ثم يترنح مندفعا إلى الأمام ويعود يقطع الشارع. بينما السيارات تحيد متفادية اياه فى اللحظات

الأخيرة، وبالصدفة، ويتوقف الاتوبيس حتى يتحاشى دهسه ويلتفت الشارع الكبير كله إلى كلب مهرول متخبط يتقدم مترنحا من موت مؤكد على الأسفلت، كلب لم يمش أبدا فى الشارع وحده، ولم يكن له أى خبرة بهذا الضلال، منذ وقت ليس بالبعيد، وعلى مبعدة خمسة وثمانين كيلو مترا أو أقل، لابد أنه قطعها حتى يصل إلى قلب هذه المدينة آتيا من لحظة غامضة تبدلت فيها حياته فجاة، وصار مهجورا فى مساحات مهجورة.. مدينة فرغت من ناسها، وبيوت لم يعد يسكنها أحد وأطراف شاسعة من الغابات والحقول تهيم فيها على غير هدى حيوانات أخرى تركها الناس وهم يخرجون من هذه المساحات على عجل، تحملهم أرتال الاتوبيسات مغلقة النوافذ وتمضى.. تخلف دنيا بلا بشر.. فقط، الخواء والحيوانات الضائعة التى يدفعها الجوع إلى الرحيل فى أى اتجاه، تمتد إليه الطرق، قبل أن تتصيدها عند المفارق البعيدة طلقات بنادق تلسكوبية يصوبها رجال يرتدون الأقنعة الواقية من الغبار الذرى. ولابد أنه أفلت من هذه

الطلقات بالصدفة إذ دفعه ترنحه إلى أن يسلك دروب الغابات الملتوية قبل أن ينحدر ويُظهر كاللطمة فى هذا الشارع، فى هذه المدينة، بعد كل هذه الشهور مذكرا الناس بتلك الأيام التى أعقبت الكارثة.. حيث كان الرعب الخفى معلقاً فى الهواء ومتسللا إلى كل الأماكن وكانت تغلق فى وجهه النوافذ رغم حرارة الجو وتغسل الطرقات والأشجار، وحتى الحيطان، ليسقط عنها هذا الغبار المحمل برعب الاشعاع. أيام مقاطعة الحليب والفاكهة والخضروات والسمك واللحم الطازج ومياه الصنابير. أيام كل الأبواب لتأخذ ما علق بالأحذية من الغبار. أيام الإجهاض بالجملة، والرعب من الإنجاب، وعدم الانجاب. أيام ترحيل الأطفال الجماعى بعيدا عن المدينة. هذه الأيام. أيام كان يحملها الكلب الهزيل المتضوّر من شدة الجوع، والذى كان واضحا أنه فقد بصره ويمضى بآخره مالديه من حاسة السمع والشم إذ ظل رأسه مطأطئا وبوزه يوشك أن يتخبط بالأسفلت المبلول لفرط اقتراب من الأرض. ثم تلك الحركة التى أتى بها فى اتجاه الترولى

المبطئ والذى كان بعيد عنه فى نهر الشارع المقابل البعيد.. اتجه إليه مندفعا فى هرولته، كأنما ضلله مصدر الصوت، حتى قاده إلى الوقوع تحت العجلات بنصفه الخلفى. عوى مرة واحدة.في ألم ورعب، ثم انكشف عنه جسم الترولى وكشف عن هذا الامتحان الشديد والصعب لكل الواقفين والماضين فى الشارع والذين استداروا جميعا يشاهدون كلبا ألصقه بالأسفلت نصفه الخلفى المدهوس والمدمَّى. فيما راحت العربات المسرعة، والتى لم تكن تتبين لثباته النسبى فى موضعه، تلطمه وهى تحاول تفاديه فى اللحظة الأخيرة. كان واضحة أن الألم يعصف به مع أقل حركة، فبقى على وضعه، وضع واحد كأنه يزحف بلا حركة مرسلا عواءه الواهن. ثم ان السيارات مع تناقص ضوء النهار راحت تمر عليه فيعوى وهو يندهس عشرات المرات. عواء مثل صرخات استغاثة، انفعل لها طفل صغير، بالصراخ، وأنه مشيرا إلى الكلب الذى ينهرس على الأسفلت. لكن أمه المروعة شدته اليها برعب فائق رعب يعادل الرعب من تلقى جرعة مكثفة من

الاشعاع المخيف حملها المسكين معه عبر رحلته الطويلة وانتهى بها إلى هذه البقعة التى التصق بها. كومة صغيرة.. كومة صغيرة راحت - مدمّاه - تتسطح رويدا رويدا على الأسفلت وينبعث منها أنين يهن شيئا فشيئا فكأنه أنين احتضار بشرى.

لا حرائق هذا الخريف

كـــانا فى زى المرضـى الأزرق الرمــــادى، وكنت إلى جورهما على أحد الأرائك تحت شجر الكستناء الكبيرة فى ظهر قسم التحاليل. ولم يكونا يعيران وجودى التفاتا كشأن المرضى المزمنين المأخوذين بعوالمهم الخاصة ودواخلهم. ثم أننى لم أكن أرتدى المعطف الأبيض ولم أكن معروفا بعد كطبيب فى مستشفى الأمراض العقلية الكبير «بافلوف». وكانا واقفين بتجاور فى عالم الحديقة الساكن الواسع. كان أحدهما يتكلم.. فيما يبدو الاخر مردداً لكلامه وكأنه رجع الصدى:

- «الخريف يحتضر».

- «آه، الخريف يحتضر».

وكان خريف «كييف» الشهير بالخريف «الذهبى»

يحتضر حقا مؤهلا الدنيا لاستقبال أول الثلوج فى غضون أسابيع، وقد مكَثْتُ أراقبه - هذا الخريف - بعيون الغريب المبهور منذ تحولت الخضرة الكثيفة إلى مهرجان من الألوان قبل تساقط الأوراق.. صارت أشجار الشوح الخفيضة بنفسجية، واحمرّ العنب البرى على الأسوار حمرة نبيذية صافية، اصفرت - صفرة كهرمانية- أوراق الكستناء والدلب. خريف مذهل الألوان أقنعنى بأن الأوراق لا تذبل فيه بل تتساقط قبل ذبولها صفراء ذهبية تغطى الطرقات والأرصفة، فكأن الأرض تكتسى بهذه الصفر الحية وتظل حتى تكنس الأوراق وتكوم فى كومات يتم احراقها باحتفالية سمعت عن طقوسها كثيرا وهى لن تكون أبدا فى هذا الخريف.

- «يحرموننا من حرائق الخريف.. يحرمون الأرض»

- «يحرموننا من حرائق الخريف»

كانت زوراق الشجر قد تم كنسها وتجميعها فى أكياس كبيرة من البلاستيك الخفيف الأسود. وقفت مكتظة تستند على جذوع الأشجار هنا وهناك فى حديقة

المستشفى، تنتظر العربات التى ستأتى لتحملها بعيدا. بعيدا جدا. قيل إلى «سيبيريا» حيث سيتم دفنها كنفايات مشعة فى الجليد الأبدى هناك قرب القطب. وستظل حتى نهاية العالم..حتى نهاية تحلل آخر عنصر مشع تشربت به جراء تعرضها لهواء كارثة الربيع.

– «ستجوع الأرض»

– «الأرض ستجوع»

كان القصير السمين ذو الشعر الأحمر يكرر قول الطويل النحيف، كأنه رجع الصدى. صدى هادئ أحادى النبرة يرتد عن جدار رخو. وكانا يتأملان العالم ببطء.. حديقة المصحة شبه الخالية وبناية قسم النساء فى الأمام وعنابر الرجال هناك، ثم الغابة التى تهبط مع انحدار المرتفع الذى تتسنمه المصحة. غابة داكنة بذؤابات الشجر العارى من الأوراق. وكَييف هناك تعلو وتهبط سابحة فى البساتين. التى تجردت من خضرتها.. بيوت بيضاء بين هامات الشجر العارى الكثيف وقباب الكاتدرائيات المكسوّة بالذهب الخالص تلمح فوق مرتفع «البادول»

وضفاف «الدنيير».

- «الورق المحروق يعيد تغذية الأرض لتعطى الخضرة من جديد».

- «تخضرّ من جديد».

كان الطويل النحيف متوترا بينما القصير المنفوخ يبدو ساكنا كقربة مشدودة. لاح لى أن القصير يعانى من الفصام الكتاتونى (التخشبى)، بينما شخصت الآخر كمصاب بالفصام الوجدانى - اكتئابى النوع، وان بدا لى معذب النظرات وهو يدور بعينيه الصافيتين فى الحديقة الخالية والعالم الواسع.. الأشجار العارية والأكياس المعبأة بورق الخريف، وطابور من المرضى المهرولين هناك باتجاه قسم العلاج بالعمل، وبضع نزيلات يقبلن من عند المطابخ حاملات دلاء الطعام ذات الطلاء الأزرق البنفسجى اللامع. ثم المدينة المبعثرة هناك وسط دكنة الأشجار.

- «جريمة ألا تتغذى الأرض»

- «آه جريمة».

كان النحيل يرتعش ممتلئًا بهذه الفكرة. وانتبه برهة إلى وجودى إذ كنت أمعن فيه. لكننى بكل ما أمتلك من خبرة سابقة تهدلت فى جلستى حتى أبدو له لا شئ. أبدو كواحد من المرضى الساكنين المتصين فى دواخلهم. وبالفعل انصرف عنى سريعا إلى ما يموج فى داخله من افتقاد واضح لحرائق الخريف التى لابد كانت تحمل له ذكريات خاصة.. ذكريات بعيدة وعزيزة وإن ذبلت. وعاد يلح من جديد ممتلئًا بذلك الهاجس..

- «لابد أن تتغذى الأرض.. حرائق الخريف.. لابد. لكننا لو فتحنا الأكياس، سيخطفنا ستالين.. سينفينا إلى سيبيريا.. أنا أعرفه لا يرحم.. هو الذى قال لهم عبئوا الأوراق فى أكياس بريا السوداء.

أكياس سوداء مثل قلب بريا. هو قال. ينبغى ألا تجوع الأرض.. ينبغى ألا تجوع. تجوع لا. لا»

كان قد أمسك بصاحبه القصير هازا إياه من كتفيه الرخوتين. فيما لم يُبدِ هذا أى انفعال غير أنه كان مهتما برفع سرواله السائب إلى أعلى بحركة آلية. وكان الطويل

يقوده وقد مكث ممسكا بكتفيه بينما يداه العظميتان الكبيرتان ترتعشان انفعالا. ولعله ارتعاش الاستخدام الطويل لعقار «الاميتازين». ثم إنه رفع يديه عنه، وأشار إلى الأرض مشرقا بفكرة لابد أنها واتته لتوها:

- «سنصنع حريقنا دون حاجة إلى أكياسهم القذرة. أكياس بريا السوداء القذرة. لن يفتح ستالين فمه. ماذا يمكن أن يقول. سنفحمه يا فاليرى نيكالايفتش. أيها العزيز فاليرى نيكالايفتش. سنفحمه. أيها العزيز المقدس»

وطفقا يجمعان الأوراق القليلة التى لم تكنس جيدا وتوضع فى الأكياس. بدا أنها نادرة بالفعل إذ كانت التنبيهات مشددة بجمع هذه الأوراق الملوثة بالاشعاع. والتى يمكن أن تغدو مصدرا أبديا للتلوث الاشعاعى لو أحرقت أو تحللت وأضيفت إلى تربة الأرض لتمتص منها النباتات والأشجار. دورة خبيثة من تداول الاشعاع تهدد أرض «كييف» إلى الأبد. وكانا أن جمعا بضع أوراق قليلة بعد أن دارا طويلا حول الأشجار. بضع أوراق صنعا منها كومة صغيرة مضحكة. كومة بائسة وانحنيا عليها

باهتمام شديد وهما يحاولان اشعالها بثقاب ن علبة متهرئة.

- «احم النار يا فاليرى نيكالايفتش. يا صديقى العزيز أيها المقدس. احم النار المقدسة. لن تجوع الأرض. ولن يمسك علينا ستالين شيئا إلى الشيطان بأكياس بريا السوداء. إلى الشيطان الأسود. المجد لله. اشتعلت»

- «اشتعلت. اشتعلت. اشتعلت» .

وبديا متهللين وهما يداريان على كومة أوراق الخريف البائسة التى أخذت تدخن كانا مثل طفلين عجوزين يفرحان بعالم النار الصغيرة. وعندما أجّت مشتعلة نهضا مبتهجين يفركان أكفهما فى نشوة. والنحيف الطويل يقود القصير الممتلئ.. كأصل وصورة فى مرآة غريبة. وكنت أراقبهما ماكثا على وضع التهدل والتقوقع فى جلستى بقربهما. حريصا ألا أخرجهما مما انشغلا به. وفجأة علت نبرة صوت الطويل النحيف فى ثقة، ثقة أُخذت أنا نفسى بها:

- «انظر يا صديقي فاليرى نيكالايفتش. أيها الغالى أنظر إلى انتصارنا. أنظر. المجد لله. لقد بدأت حرائق الخريف تشتعل. تنتشر هنا وهناك. أنظر. المدينة تقاوم. لقد صنعنا الشرارة الأولى. وها هى النار المقدسة تشتعل. حرائق الخريف تشتعل. رغم أنف أكياس بريا السوداء يا عزيزى فاليرى نيكالايفتش أنظر أيها العزيز. فى كل مكان تشتعل».

وكان يشير هنا وهناك باصبع مرتعشة، يقينية، وعيناه الصافيتان تأتلقان بوميض غريب. وميض من يرى حرائق أوراق الخريف تشتعل هنا وهناك حقا فى المدينة، ويتصاعد دخان حرائقها من بين مساحات الأشجار ومن خلف ظهور الأبنية وحول القباب. كان يتصايح بتهلل ناقلا تهلله إلى صاحبه الذى راح يرتج فى بهجة.. يصدر صوتا كزومان طفل يجن فرحا بالحرائق الأليفة التى استطاع أن يراها حيث يشير الدليل.. باتساع ساحة البصر. وبدا لى الخريف موحشا، وكييف هناك، تتناثر بيضاء شاسعة، بين ذؤابات الشجر القاتم العارى، ولا دخان هناك أبداً لا دخان.

الشتاء

يبتدئ الشتاء نفسيًا بهطول أول الثلوج. يصحو الناس من نومهم فيجدون الدنيا بيضاء.. ناصعة. بياض جليل يغطى الدنيا، وتستجيب له النفوس وكأن الثلوج تغمرها مثل الأرض. فتحت الغطاء الأبيض ينام العشب والبذور والجذور. وتحت سطح النهر المتجمد والبحيرات لا تكف الأسماك عن الحياة والحركة فى تيارات الباطن الدافئة العميقة.

نزلت الثلوج مبكرة وكثيفة فى هذا العام لتترافق مع الانتهاء من طلاء التابوت بدهان معدنى مقاوم للصدأ من اللونين: الأبيض والأخضر. لماذا هذان اللونان؟ وما مغزاهما؟ الثلج والخضرة!. غطت الثلوج الأرض وراحت مكائن جبارة تكشط قشرة الأرض حول تشيرنوبيل بغية نقلها ثم قبرها بعيدا.. أبعد ما يكون وأعمق ما يكون. فى ثلوج سيبيريا الأبدية قرب القطب المتجمد. أما ثلوج كييف

المؤقتة، فانها راحت ترتفع فى هذا الشتاء غزيرة كما لم يحدث أبدا من قبل. وكان ذلك مدعاة للفرح - قبل تشيرنوبيل، أما الان فما أشد الخوف الذى استدعى اقامة سدود التصفية، ومصائد الطمى، حتى لا يتلوث النهر عند الذوبان الثلوج وحدوث فيضان يغمر الضفاف ويعود ساحبا معه إلى المجرى كل ما كان يختبئ من اشعاع طمرته الثلوج. وعلى مقربة من كييف كانت الثلوج تغمر مدينة كاملة لا يسكنها أحد، وربما ستظل لعشرات السنين مهجورة. مدينة بريبيات التى بقيت الملابس المنشورة فى شرفاتها تخفق دون أن ترفعها يد منذ أيام الربيع. وكانت أضواء المرور تنظم حركة لا وجود لها فى شوارع المدينة المهجورة. شتاء موحش يوحى بأن كائنات شتى فى دائرة الأرض المحرمة (ونصف قطرها ثلاثين كيلو مترا) راحت تغمرها الثلوج. وفى كييف كانت الحياة تمضى بايقاع الشتاء الكتوم. كانت هذه هدنة، ولم تكن نهاية. وعلى الثلوج التى لم أخش شيئا قدر خشيتى من المشى فوقها، كنت أخطو ببطء يصل إلى درجة الوجل،

ناظرا إلى مواطئ قدمىّ فى البياض الناصع، ورافعا بين الفينة والفينة وجهى إلى العالم.. أجمع ما يطل برأسه عبر غطاء الثلوج من لحظات بقيت لتشيرنوبيل.

لحظات الشتاء

تزحلق على الجليد

الناس الذين سرق منهم رعب الاشعاع مرح الصيف، يخرجون إلى ملاعب الشتاء القارص وكأنهم يخرجون لملاقاة الربيع.. جحافل - على غير العادة - تغادر دفء البيوت فى ملابس الرياضات الشتوية نحو ساحات الجليد.. البحيرات المتجمدة فى حدائق المدينة وبين غابات الصنوبر عند الأطراف. وأجد نفسى مجتاحا بهذا الخروج وسط مجموعة تحمل الزلاقات الخشبية وأحذية التزحلق. يرف حولى فرحهم الزائد، وأمتلئ بالتشوف والوجل.

«هيا. هيا.. حاول. حاول»- يعلموننى كيف أتحرك وفى قدمى حذاء الجليد لكننى ما أكاد أخطو خطوة حتى

أتبـعـثـر هاويا على الأرض. يوشك أن يندق عنقى لولا كثافة ما أرتديه من دثار يمتص الصدمات وكل محاولة فاشلة تزيد من رعبى فيزيد ارتباكى. وهم يجهدون أنفسهم فى تعليمى كيف أنطلق: «أن أُلبِّث قدمىّ بكامل مساحاتيهما فى الأرض ألا أترك ظهرى ينطرح إلى الخلف. ألا انظر إلى مواطئ قدمىّ». نصائح أحاول تطبيقها دون جدوى. ويقترب من كان يراقب الموقف فى صمت، ويعترض على طريقة معلمى...

«لا لا لا علموه أولا كيف يقع» ويبادر إلى تعليمى ذلك، بنفسه.. يعلمنى كيف أسقط أرضا وأنا أتزلق.. كيف ألم جسدى فى اللحظة المناسبة عندما أحس باختلال توازنى، وأمتص صدمة الوقوع بهذه الأجزاء المحمية عظامها بغطاء جيد من العضلات: الأفخاذ.. المؤخرة.. الظهر.

كيف أقع؟ يالها من فكرة أتحمس لها. وأتعلم بالفعل كيف أقع. مرة ومرة ومرة. وإذ بى لا أخاف من الانطلاق. أنطلق مشوارا لا بأس به لكننى فى النهاية أقع. الوقوع الذى لا أخافه حتى أننى أمكث ضاحكا حيث وقعت..

مضطجعا على الجليد أتأمل ساحة التزحلق الواسعة المزحومة: ساحة الماء الذى تجمد كاتما تحته ما تساقط من غبار لوّثه الاشعاع. فرجة من الوقت لمراح الانسان يلتقط خلالها أنفاسه، لعله يتدبر ما سيكون

ما بعد العشاء

لم أصدق عيني عندما دخلت ورأيته يضع أمامه للعشاء، مع الجبن القديم والبيض، حلقات «الكالباسا».. اللانشون الذى كان يقاطعه بحسم لشبهة أن يكون فيه لحم أو دهن خنزير. ودعانى لمشاركته عشاءه وهو يتربع على السرير كعهده، فى الكالسون الواسع وفانلة الفلاحين البنية ذات الأكمام وفوقها الصديرى. وكان يمضغ ببطء متضجر، ويلقى فى فمه باللقيمات كأنه يتخلص من واجب ثقيل.

ما الذى حدث؟ سألته. فأصدر هذا الصوت الغريب من بين شفتيه.. لم يدلنى على شئ، وكان مختلفا.. هو الذى بدا كأنه جاء من مصر ليعيش فى مصر وسط هذا الشمال الأوربى وعلى الرغم منه.. غرفته غرفة طالب ريفى مصرى، رغم الدكتوراة التى يعد لها و«الميكروبروسيسور»

الذى يدرسه.. زلعة الجبن القديم، وأكياس الملوخية الناشفة، وعقود البامية المجففة، وصورة كبيرة لعبد الناصر على الجدار، وإطار به آية الكرسى، وصور لزوجته المحبية وأطفاله الثلاثة.. ثم البورى وكيس المعسل وعلبة الفحم. واستمر يزدرد طعامه بتثاقل مغموم، دون أن يجيب على سؤالى. فعاودت السؤال. لم يجب من جديد، لكنه أشار إلى خطاب تلقاه، وكان مفتوحا على طرف الوسادة بجانبه، فتناولته. كان الخطاب من زوجته ترسل إليه بالسلام والأشواق وتحدثه عن شئون الأسرة وأحوالها، ثم لفتت نظرى فقرة تقول فيها: «وأنا محتاره وخايفه على أحمد لأنه كما تعرف لا يرضع من صدرى ويعتمد على اللبن الصناعى من يوم الالتهاب الذى حدث. وقد اكتشفوا أن ألبان الأطفال الموجودة فى مصر جزء من أطعمة ملوثة بالاشعاع فى المانيا لما مرّت عليها سحابة شرنوبل الذرية. وكانوا فى المانيا سيعدموا هذه الأطعمة لكن التجار المصريين راحوا واستوردوها فى السر بتراب الفلوس ودخلوها بالبراطيل فى مصر. وأحمد مثله مثل عيال ناس كثيره رضع من هذه الألبان وأنا

مفزوعة والناس كلها فى رعب على عيالها لأنهم يقولوا أن هذه الأطعمة والألبان تسبب التشوهات والسرطان والجنون. وأنا مرعوبه وخايفه خالص. ياريت تكتب لى جواب بسرعة تطمننى».

طويت الخطاب، ووضعته فى مكانه على طرف الوسادة دون أن أتكلم، وكان هو قد أنهى عشاءه وذهب ليعد الشاى ويسوى للبورى بضع جمرات من الفحم على لهب موقد الغاز فى مطبخ الطابق. وفكرت فى أنه يشق طريقه الان فى الردهة العمومية، بسرواله الواسع وفانلة وصديرى الفلاحين المصريين والبلغة.. غير مكترث بنظرات العيون الملونة من حول وشعرت بافتقاده وسط الغرفة التى تستقر فيها «الذلع» على الأرفف إلى جوار المراجع العلمية بينما كانت صور أطفاله وزوجته وآية الكرسى وصورة عبد الناصر الكبيرة.. كلها على الجدار، تتوالى حتى إطار النافذة الزجاجية العريضة. حيث كان الثلج المتساقط فى الخارج يبين غزيرا.. أبيض.. كستارة من الدانتيلا الناصعة تهتز على سواد الليل.

أخيراً

فجأة أكتشف أن الباص الكهربائى الذى أجلس فيه، يشق طريقه وسط عالم من المقابر، تنتأ شواهدها الداكنة عبر الثلوج.. مقابر فى الأمام، ومقابر فى الخلف، ومقابر على الجانبين. إنها منطقة «البابيار»، مرّ الباص بها وأنا فيه - مائة مرّة من قبل وأكثر - دون أن أنتبه إلي هذا الحداد الممتد. فأهبط مشدوداً إلى هذا الموت الموحش وسط الثلوج...

بلاطات نائمة بطول النعوش التى دفنت فى الأرض، مصطفة يكسوها بياض الثلج الناصع وتقوم على رؤوسها الشواهد.. لوحات من الرخام والجرانيت، داكنة كلها، منقوشة عليها الصور وكلمات الوصايا والوداع، وهنا وهناك تتناثر أكاليل زهور ذابلة وأخرى فى طريقها إلى

الذبول. وأنا أتحرك فى ساحة الموت الساجى وسط البياض.. أفتش عن شاهد لواحد قضى فى تشرنوبيل.

أعثر على شواهد ضحايا الحرب العظمى، وشواهد ضحايا الحرب الأفغانية، وشواهد الموتى بلا حروب. كلمات أوصى بنقشها على قبورهم الراحلون، وكلمات أخرى.. من حبيبة تعاهد الراحل على الوفاء إلى الأبد، أو أم تذرف كلماتها الدموع على ابنها. وأجد فى بحثى عن شاهد قبر لواحد من ضحايا تشيرنوبيل وكأنه يخصنى.

إن عبارة واحدة لا تشير إلى ذكرى الكارثة، لكننى أخيراً أعثر على شاهد أرجح بملابسات تاريخ الوفاة وعمر المتوفى ومهنته ومكان الإقامة أنه قضى إثر تشيرنوبيل. وكلمة واحدة ينطق بها الشاهد.. محفورة بعمق فى كدنة الجرانيت الرمادى تقول: «باطشمو».. ومعناها: لماذا. وأحب أن أترجمها فى داخلى: ليه؟.. وعلشان أيه؟

(٢)
طوابير موسكو ٩٠

أو بوف

تمضى متسكعاً فى شوارع موسكو الرحيبة. أول يوم بعد غيبة عام ونصف. هل هى بالفترة الطويلة؟ ليست كذلك تقول لنفسك إن العالم تغيّر كثيراً. تحس بذلك أكثر مما يمكن أن تقول كيف. ويهبط عليك المساء مبكراً.. الظلمة الشفيفة والتماع الطرقات والأرصفة المبلولة ولجج المياه المنتشرة. حتى شتاء موسكو الذى كان راسخاً تتغير طباعه فدرجة الحرارة تتأرجح حول الصفر. تصعد فى النهار قليلاً وتهبط مع الليل. لكنها تعود إلى الصعود من جديد. تذوب الثلوج ببطء وتتحول إلى وحول بيضاء ولجج هنا وهناك، بلل ورطوبة والحزن الروسى الراسخ فى الليل لا تبدده أضواء الشوارع، المصابيح المتوحدة والإعلانات الملونة التى تكاثرت. وثمة أسماء أجنبية

تومض وتنطفئ. تومض وتنطفئ أو تغير أشكالها وألوانها بنعومة. لكن هذا كله لا يحرك الحزن الكامن في الليل الروسي. تحس أكثر مما تعرف أن تقول كيف. فأنت في جوه هذا التسكع تبحث عن يقين، وتمضي. منتش أنت قليلاً بلسعة الهواء الخفيفة الباردة لجبينك ويداك في جيوب سترتك تنعمان بالدفء. وعيناك تجولان في المدى الشاسع للمساء ثم تتوقف على رصيف مبلول في شارع جوركي زاوية مسدودة بطابور مزدوج يمتد طويلاً أمامك وينتهي إلى باب موارب. لا لافتة ولا إعلان ولا رقم على الباب الخشبي الثقيل. يشبه أبواب المسارح القديمة. وأنت في الركن القديم من الشارع القديم. تحس بدبيب فرح مرهف وسط نسائم المساء المبتردة الشفيفة. إذن يظل هناك مكان للروح. يظل هناك كل هذا التزاحم على الجميل في مواجهة المبتذل. على الأعلى صعوداً عن الأدنى، إذن يبقى شيء. تقول في نفسك ذلك وتفرح بسحر الفن الذي شرّد أقدامك وجعلك تمتلك قلبك. لكن هاجساً تعيساً يراودك وأنت تتملى الطابور، فهم يتضاغطون

بتحفز وربما بشئ من الكراهية لأنفسهم وللعالم. عيونهم التى تتهرب من عينيك المتفحصتين، التلويحات الصغيرة العصبية التى ترد عى سؤالك: ماذا يُعرض هناك. وينفتح الباب الموارب فكأن بناءً قديماً ينهار أمام عينيك يتدافعون بغلٍ ينفرط فى فوضى صغيرة وتسابق مسعور إلى الدخول. ينهار الطابور وتكتشف عافية الأجساد المتدافعة. كيف غاب ذلك عن رؤيتك؟ إنهم على الأغلب من صغار العمر. صبايا يافعات وشبان. ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ تتساءل بإلحاح ممسكا بأى ساعد على حافة الفوضى. بأى يد. بأى طرف من أطراف التدافع الأصم. لكنهم ينترون يدك. ويشيحون عن سؤالك: ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ وأنت تلح : ماذا هناك. ولعل يديك كانتا عصبيتين أكثر من اللازم وأنت تمسك بذراع من تسأله تشدد يديك أكثر من اللازم. وتُشدّد على السؤال: ماذا هناك؟ فيرمى الإجابة فى وجهك بغيظ وبشئ من الكراهية.. يدعك عنه وهو يصرخ فى وجهك الذى ربما بدا له فى هذه اللحظة أغبى مما يتحمل: «أو بوف» أو بوف !!! – تردّد الاجابة

وأنت تمضى متحيراً.. إنك تعرف معنى الكلمة معجمياً لكنها تذهلك فى هذا الموضع. تمضى وصداها يتردد فى ذهن. وكأن شارع جوركى العريض استحال إلى تكوين هائل لإرسال الصدى من كلٍ صوب. كل شئ يعكس عنه الكلمة فتترجّع.. عن لمعة الأسفلت الذى أوسعوه منذ سنين بحمل عمارتين قديمتين هائلتين إلى الخلف دون أن تسقط منهما لبنة. عن نجمة الكريملين الياقوتية الومضة فى أفق الليل غير بعيد. عن توهج المصابيح بالنور. عن تلاعب اللافتات المضيئة. عن واجهات المحال والمكتبات.. أو بوف. أو بوف. أو بوف.. تجيئك من كل صوب وأنت شارد لاتكاد تصدق أن الكلمة معناها: أحذية وتعيد ترجمتها فى شرودك وكأنك تريد مطابقتها على رجع الصدى: أحذية .أحذية .أحذية. أحذية.

مع الذاكرة
ضد الذاكرة

لم يعد وقوفهم ممكناً في حديقة «بوشكين» المفتوحة بينما يهب هذا الهواء الشتوي البارد. لهذا تراهم يلوذون ببعض الدفء في تزاحمهم على الرصيف القريب.. بين بناية جريدة «موسكوفسكي نوفوستي» والأكشاك التي تبيع عصير «الفانتا» وتذاكر المسرح ثم إنهم يتواجدون أيضا في النفق الموصل إلى محطة المترو. وكما هي عادتك الملحة كلما كنت في موسكو تذهب لتتندس وسطهم.. تسمعهم وتراهم كظاهرة غير مألوفة في بلد كهذا. ولأنهم انتقلوا من مساحة الحديقة الواسعة إلى ضيق الرصيف ومحدودية النفق فإنك تحس بالزحام يضغطك وتتفلت بصعوبة لتنتقل بين حلقاتهم وتجمعاتهم

العديدة. لكنك بعد قليل تكتشف قانوناً للمرور بيسر وسط هذا التزاحم فثمة ترتيبة لا شعورية - جمعية - جعلت الآتين يمرون في قطار بشرى وسط الزحام والذاهبين يمرون في قطار آخر مواز وملاصق ويمضي في الاتجاه المعاكس. تضع نفسك في أحد الاتجاهين وتمر بهم. فهل تغيروا؟ إنهم لم يعودوا يحملون لافتات مطالبهم على صدورهم لم يعودوا يكتفون بصنع حلقات نقاشهم المتساحب. وفي نفس الوقت لم يعد رجال «الميليشيا» يظهرون هنا وهناك في حالة الترقب تلك - بين حلقاتهم. فقد صاروا الآن يطبعون أوراقهم. صاروا يحددون هوياتهم. ويلصقون أوراقهم على الجدران في تلك المساحة من الرصيف وفي داخل النفق وتميل لتنظر إلى ما بين ايديهم..

مجلات مختلفة في وريقات قليلة. مطبوعة بالماستر أو منسوخة على الرونيو. «الحرية».. و«الاختيار» و«برنامج الجبهة الشعبية الروسية» «الحقيقة» وحتى «الجنس» ومقالات مترجمة عن «التايم» و«النيوزويك» و«البلادى بوى»

وتتوالى على سمك النداءات التى يروجون بها لأوراقهم وأنت تمر بهم.. يدفعك قطار الأجساد المتزاحمة السارى وسط الزحام: «الحرية.. لأجل حريتك ولأجل حريتنا» «يلتسين يفحم جورباتشوف عدة مرات فى اللجنة المركزية» «من هى رايسا» «أشياء غريبة تحدث فى موسكو» «لا تخاف الحكومة ولا تخاف الـ «ك. ج. ب» وتستدير لتضع نفسك فى الطابور الراجع. أنت تريد الإمعان فى الوجوه والملابس تحب فى قرارة نفسك لو تراهم نشازا. لماذا؟ هل شخت حتى أنك صرت تفضل الاستقرار وعلى أى نحو؟! أم أنك تقف مع من ترعبهم الفوضى فى بلد كهذا مازال يكوّن ثقلاً أساسياً فى ميزان العالم تتملى سحنهم وهيئاتهم. على السياج الجانبى للدرج الهابط إلى النفق رصوا أوراقهم التى ينادون عليها. فى البداية تؤكد مناظرهم انطباعك.. شعور سائبة ولحى مرسلة ومعاطف مهملة أو متسخة وتلك المعاطف الجلدية القديمة المتآكلة أو المثقوبة عند المرافق. هل هم مجرد فوضويين؟ وهنا وهناك فتياتهم معهم فتيات

صغيرات يدخنّ باستهتار ونهم. لكن انطباعك الأول ما يلبث حتى يتآكل شيئاً فشيئاً. فهاهم أيضاً بشر مهتدمون سحن «الانتلچينسيا» التى تشع بالرهافة والتدقيق. من كل الأعمار وكل الهيئات وتتوقف لتصغى إلى نقاشهم. بالأرقام وبالتواريخ وبفقرات كاملة من المراجع يتقارعون إنهم الروس الذين توقن فى قول «دوستويفسكى» عنهم بإنهم موهوبون لكنهم يفتقدون الشكل.. أرواح مبدعة ونزوع إلى التدمير ثم الشعور الساحق بالذنب. هل قال بذلك «براديئيف» أيضا وهو يشرح دوستويفسكى؟. وتصل أخيراً إلى حلقة من حلقات القوميين الروس. جماعة الذاكرة فيما تظن. أنت فى قرارة نفسك لا تطمئن إلى كثير من اليهود لأنهم يفاجئونك دوماً بقلوب صهيونية لكنك تفزع عندما تسمع هذا الصوت العالى الخشن.. لكنة أهل لينينجراد المليئة الحروف: «يا عالم نحن قلناها كلمة. نحن لن نستطيع العيش مع اليهود. لابد أن يعودوا إلى المكان الذى سُمح لهم بالإقامة فيه. لابد أن يمنعوا من دخول موسكو ومدننا الروسية كلها ويحتدم النقاش

ويوشك أن يصل إلى درجة التماسك بالأيدى. أنت عربى وبينك وبين الصهيونية بحر من الدم والمرارة والآلم. لكنك مثقف إنسانى أيضاً. يفزعك الخلط. فأنت تعشق كافكا وكتاب تفسير الأحلام وجمالية نسبية اينشتاين وتعجبك بافتتان جداريات شاجال. يفزعك الخلط. وتشعر بنواة الأنقلابات المريرة فى كل صوت عال. فى كل صوت سوقى. وتبتعد غير مطمئن تفكر فى احتمال أن يكون الصهاينة أنفسهم هم المُشعل الخفى لهذا الفتيل.. حتى يتزايد عدد المهاجرين من اليهود السوفييت إلى اسرائيل بدعوى الرعب من نار اللاسامية. لم لا؟ يفزعك الخلط وأنت تمضى فى الطابور الخارج من هذه البؤرة. وتفكر فى آفاقها. هل تبقى مجرد بؤرة للتنفيس؟ أم أن هذه عينة من وجع كبير فى هذا البل الكبير. الثقل الكبير فى ميزان العالم الذى سيسحقنا - أول ما يسحق - اختلاله..؟ وتمضى بعلامات استفهامك المعلّقة.. تروم مكاناً فسيحاً تتنفس فيه أحسن بعيداً عن هذا الزحام.

على حرف

الجانب الاخر من حديقة ميدان «تڤيرسكى» فى مواجهة المقهى الصغير الجميل المعلق ومحل أرمينيا الذى يذكرك اسمه بزلزال قريب ونيران مازالت تشتعل هناك. تتأجج ثم تخبو لكنها لم تنطفئ بعد فثمة دماء أُريقت وبطون بُقرت عن أجنة نائمة وأجساد بشرية تم إلقاؤها من فوق البنايات. ثم موجات من هجرات بشرية مرتاعة تهرب من طوفان غريب طوفان استيقاظ الدماء القديمة فى العروق التى تم تفريغها من مكونات خلقتها الأولى بتسرع. وربما بفظاظة. لهذا تعود إلى سيرتها الأولى بتوحش.

صراع القوميات الدامى. أزربيچان أرمينيا وتنتقل من اسم أرمينيا إلى الجانب الآخر من الميدان. وفى أعلى

الركن الخلفي تتوقف ببصرك عند الحرف «M» الذى يبتدئ به الإعلان المضئ المعلق M» الذى يبتدئ به الإعلان المضئ المعلقM» بيضاء فى شكل روسى الكتابة على خلفية العلم السوفيتى الأحمر وتهبط عن الحرف فتكتشف أنه كان بداية لاسم «ماكدونالد» الأمريكى. إذن هذا مطعم ماكدونالد الذى افتتحه الامريكان فى موسكو. لم يكن هنا منذ عام مضى عندما جئت ودخلت مع صديقك إلى المقهى الروسى الدافئ فى نفس المكان. تتذكر الخشب الجوزى الذى كان يكسو الجدران كلها. والمصابيح الأليفة المدلاة من السقف. والبنات الورديات خلف الطاولة حيث كان «الساموفار» الروسى لتقديم الشاى ساخناً باستمرار وجهاز صنع القهوة والمفارش المطرزة التى تغطى الصوانى وتتراص عليها الفناجين المنقوشة من بورسلين ليننجراد. تتذكر أنك طلبت شاياً وقطعة من حلوى «البيروچنا» بالكريم وكذلك فعل صديقك. وكان فى الركن القريب بعض من المثقفين السوفييت يتناقشون فى مسائل جمالية تبينت منها أنهم سينمائيون.

الآن لا يمكنك الدخول لتطلب فنجاناً من الشاى الساخن وقطعة من «البيروچنا» وتتحادث مع صديقك فى بساطة الدفء فخلف النوافذ الزجاجية للمكان التى نزعوا عنها ستائر الدانتيلا يلوح زحام البشر هناك. من نجحوا فى حجز أماكن للغداء عند «ماكدونالد». تراهم مغتبطين ومتزاحمين كأنهم فى مطعم متقارب الموائد لسفينة بعرض البحر. كأنهم مغلفون هناك فى صناديق زجاجية للعرض. وأنت لا تستطيع مجرد الاقتراب من الباب الذى يقع علي مدى بصرك. فثمة زحام غريب. وحواجز تنظم الدخول والخروج. ورجال «ميليشيا» فى زيهم الرسمى ينتشرون فى المكان حتى يضبطوا حركة الزحام الهائل بأجهزة اللاسلكى التى توصّل بينهم. أى زحام هذا؟ أطول طابور رأته عيناك فى موسكو يا إلهى!! هل سيقفون هكذا، طويلا حتى يفوزوا فى النهاية بشراء كيس ورقى به شطيرة «هامبورجر» وبعض من بطاطس الشيبس المضلعة؟ يا الله. كم يلزمك من الوقت لتتملى الوجوه فى هذا الطابور؟ وكم ساعة سيقفون؟ هل تقبل

أنت – بصــراحــة – أن تضع نفـسـك فى هـذا الموضـع وبملابســاته؟ ألن تشـعـر بالخـجل؟ ألن تلعن نفـسك بـعد بضع دقائق وتزفر: إلى الجحيم بهذا كله. ثم تذهب لتأكل فى أى مكان سلطة البطاطس وقطعة «الكتاليتـا» وطبق البـورش الســاخن وتشـعـر بأن هـذا أكـرم وأفـضـل. هل الوصـم بدناءة هـذه الوقــفـة وارد، أم أنك تبــالغ فـى رؤية الأمـر من زاويتك البـعـيدة ووقـفـتك المتفـرجـة من طرف الميدان؟ لابد لك من تأمل الوجوه لعلك تقف على بعض من أسـبـاب الجـانب الأخـر. وتدور تدور مع الالتـفـاف الهـائل للطابـور حـول مـحيط الميدان كله. تدور وتدور بعينيك فى الوجوه وتود أن تسـأل. لكنك تخجل من أن تكون جارحاً وتكتـفـى بالتملى، وجوه راسـخة السـطوح ووجـوه مشـوبة بحمرة لا تستطيع أن تفهم كنهها، غبطة هذه أم خجل؟ تحـاول أن تعـبـر الحـدقـات إلى العـمق لكنك تتـحـيـر فى الصـفـاء الملون للعـيـون التى تبـادلك التـملى ضـاحكة أو منفلتة. أنت تفهم نوازع الصغار المولعين بالتجريب فى كل شئ وفى كل الدينا وإلى أى حـد. لكنك لا تفـهـم مـبـررات

الكبار لمكابدة ذلك. وتتعب من الدوران ومن محاولات الاقتحام هذه فتقرر الابتعاد. تمضى ولا تدرى لماذا يظل ذلك الحرف الملتبس «م» على خلفية من العلم الأحمر وفى بداية اسم «مادكونالد» معلقاً فى أفق ذاكرتك ويتلوى عليه امتداد ذلك الطابور. كأنك تمزج - لاشعوريا - بين منظرين على شاشة ذهنك.

هُــم

تلمحه - كأنك ترى بعينين غامضتين فى مؤخر رأسك - بينما تتأهب للاستقرار داخل الترولى باص رقم ١، فتقفز عائداً إلى الرصيف قبل أن تنغلق الأبواب وينطلق الترولى. فأنت تعثر على مثله أخيراً، ولا تريد أن تُفلت الفرصة. وتتجه نحوه وسط طابور المتزاحمين أمام محل عطور «سوار دو بارى» فى شارع «جوركى»

تتذكر وأنت تقترب منه، هذه المرة التى تساءلت فيها - وسط جمع من العرب والسوفييت الأصدقاء - عن سر تكاثر اليهود على أقسام الاستشراق عامة واللغة العربية خاصة، ومن سعيهم المتوارى للتعرف (علينا). وتشابكت إجابات كثيرة. لكن الذى آثار اهتمامك أكثر هو هذه

الإجابة عن أنهم فى البُعد الأعمق يريدون التعرف على صور قريبة من ذواتهم البعيدة التى انشقوا عنها.. ساميون أُخر. ولعل فى هذا بعض من فضولك الشديد تجاههم.

نعم، عليك أن تعترف بوسواسك هذا، فما من مرّة اقتربت فيها أو اقترب منك سوقيتى إلا وسألت نفسك عما إذا كان يهودياً أم لا. وتضحك من نفسك وأنت تحاول وضع منهج فراسى «فزيو جنومونى» للتعرف عليهم من مجرد هيئاتهم الخارجية التى تشبهنا فى السُمرة التى تخالط البياض وسواد لون الشعر والعيون غالباً.. ترسم خطاً أفقياً يبدأ تحت منبت الأذن وتمده عبر الوجه لترى إذا ما كانت الأنف تقطعه أم لا، وتنظر إلى دكنة الحواجب، امتلأ الخاصرة، والقصر النسبى للسيقان مقارنة مع الجذوع، ثم هذه التركيبة الاكتئابية لبدن كبير البطن وصغير الأيادى. وتضحك لأنك لم تخرج من هذا كله إلا بتعميق تيهك عنهم، وتوتير فضولك أكثر حتى أنك تقفز قفزاً من الترولى باص، ناسياً تماماً ما كنت متجهاً

إليه.. لتتأمل واحداً يعلن على الملأ أنه يهودى.

لم يكن يعلن عن اليهودية فقط، بل كان يعلن عن أشياء كثيرة في وقت واحد عبر ملابسه (واكسسواراته).. بذته الصيفية الغامضة اللماعة طويلة السترة حتى الركبتين، ونجمة داوود المعلقة في سلسلة ذهبية محبوكة على عنقه ووسطها فص ماسى، ثم (بادچات) مكرّرة لعلم أمريكا وعلم اسرائيل على صدر سترته. ولم يكن فيه من منهجك «الفيزيوجنومونى» ولا علامة واحدة. فهو أشبه برياضيى رفع الأثقال الأوربيين من الأوزان المتوسطة: متوسط الطول ومشدود الامتلاء وتبدو يداه كبيرتين وثقيلتين. ولأنك كنت خارج الطابور فقد استطعت أن تتبين كونه خارج الطابور وداخله فى نفس الوقت!

كان يدخل فى الطابور ويخرج منه ثم يعود إلى مكان آخر فيه محمياً بنوع ثقيل من الثقة بالنفس وعدم الاكتراث بالآخرين. ثم بدأت تتبين الخطوط السرية التى تربط بين وجوده ووجود شبان آخرين ذوى ملامح روسية خالصة.. كانوا أصحاء ومتعملقين ويتناثرون فى المكان

على أبعاد محدودة. كانت لهم قصات شعور وملابس «الهوليجانز» «والموتوسيكيستس» النافرة مما أخافك. لكنك لم تنصرف إذ كان فضولك أكبر من خوفك. ورحت تتأمله.

تشعر نحوه بكراهية تحاول أن تتعقب مصدرها، لعلك تعيد النظر ولا يميل ميزانك ناحية الموروث والدراج. لكن الكراهية تجتاحك نحو صلافته.. فهو من «هنا»، ويتبجح بأنه ينتمى إلى «هناك»، ثم إنه «هنا» يفسد ويخرّب. إنه يعيد شراء العطور من المشترين الذين لديهم «بطاقات»، بإغراء السعر الأعلى، وبثقل الإلحاح، بل وبنوع من التهديد المضمر. يعيد احتكار العطور التى باعتها باريس لموسكو بالذهب والكافيار وخشب الحور، ليطرحها فيما بعد بالسعر الذى يحدده. ولابد أنه يغير ثروة روبيلاته المتراكمة بدولارات السوق السوداء تأهبا لتهريبها عند الخروج. إلى أين؟ إلى اسرائيل؟

نتأمل حراكة الواثق المرزق لانتظام الطابور وظلال مساوماته الثقيلة والإلحاح، ثم نجاحه فى الوصول أخيراً

إلى هذه الصفقات. وتكرهه. تفكر فى أن هذا بالضبط هو من سيذهب إلى اسرائيل ويرتدى الذى العسكرى المرقش المحبوك ويتيه برشاشة «العوزى». وفى لحظة من لحظات النفوس الميتة سيدير عشرة من العمال الفلسطينين المتعبين العزّل نحو جدار فى تل أبيب ويطلق عليهم النار مثلما أذيع عن أحدهم أمس. ولعله لن يكون فى حاجة إلى ادعاء الجنون فثمة حكومة ما ستدعى عنه ذلك فى اسرائيل .تكرهه. أنت تكرهه لدرجة خروجك عن سياقك المسالم والوقوف عند جحيم الرغبة فى استخدام سكين أو إطلاق رصاصة. وتتخيل دفاعك عن نفسك لو حدث هذا. دفاعك عن الهبوط درجة للثأر من أقصى حضيض الانحطاط. وهل هناك أحط من ملحد يتسربل ببعض من كتاب قديم لينال «امتياز» أحد أبناء «شعب الله المختار» ويقتل الآخرين «الكلاب والحمير» دون أن يهتز فى قلبه وتر. هل هناك أحط؟ تتساءل طافحاً بالكراهية نحوه. وتفاجأ بالتفاته إليك.

تكتشف وهو يقترب منك ببطء داهم بينما تتحرك

صويك أيضاً ظلاله الثقيلة فى هيئات الموتوسيكيستز والهوليجانز.. تكتشف أنك لا تصلح أبداً لأن تكون قاتلاً، بينما أنت مرشح بجدارة لأن تكون قتيلاً. قتيلاً بكل ملابسات الأوتار الانسانية التى مازلت ترتعش فى قلبك. فأنت لن تبادر أبدا بإراقة دم حتى من يتأهب لقتلك. وما هواجسك عن أن تكون قاتلاً إلا أوهام يائسة. يأس الكائنات الأليفة الخرساء التى تعض عندما يجتاحها ألم ساحق تعجز عن رده أو حتى مجرد التعبير عنه. تعض ربما لكنها لا تفترس أبداً. وتطبق عليك حلقتهم فوق رصيف شارع «جوركى»، فى قلب «موسكو»، وعلى مشهد من أسوار «الكريملين» وأبراجه وقبابه. تطبق الحلقة حتى لا ترى حولك إلاّ أجساداً فارعة مفتولة وهو بينها يبادئك واضعاً يده الثقيلة على كتفك: «لماذا تنظر إلىّ طويلاً.. هل أعجبك؟»

– «بل لأنك – بالضبط لا تعجبنى»، قلتها وأنت تبذل أقصى الطاقة لستر ارتعاشك. فقد كنت خائفاً. تشعر بانفراد أليم فى قلب العاصمة الهائلة التى كانت صديقة.

وتشعر بالعطف على نفسك لدرجة الاستوحاش العطف على جسمك الصغير المحاط بهذه الحيطان العالية من اللحم الأصم. كنت خائفاً لكنك فى أعماقك لم تجبن. قررت أنك ستدافع عن كرامة جسدك الصغير هذا بأقصى ما تستطيعه من توحش. وعندما جاءتك إجابته: «لا أعجبك.. لكنك تعجبنى. أمريكى لاتينى أنت؟» لم تنتبه إلى الخلل الملفت فى حدسه، أو لعله تعمد ذلك. لقد كنت متسغرقاً فى التحفز للذود عن كرامة حجمك المتواضع. وضربت يده الثقيلة التى راحت تتحسس ذقنك وعنقك بإيحاءات سافلة. كنت تفكر كيف ستضرب بقدمك ردّاً على أول ضربة يد عندما فوجئت بانكسار الطوق وظهور عجوز لم تغادره العافية يشدك بعيدا: «تعال.. تعال.. لماذا تضيّع نفسك هنا.. تعال».

تبتعد مع العجوز إنها لفته حفظت لك ما يمكن من ماء وجهك. لقد رددت فى حدود ما وجه إليك. لكن لو أن الأمر استطال، هل كنت تستطيع تسديد الحساب على الفور؟ تتساءل فى نفسك، وتشعر بالامتنان للرجل العجوز إلى

جوارك. تبدى له ذلك فينطلق فى حديث مكرر عن فساد الأجيال الجديدة وضياعها. وتحاول أن تلفت نظره إلى هوية زعيمهم هذا أمام محل «سوار دو بارى».. تقول: «وهذا .. يُعلق نجمة سداسية أريضاً». فيقول لك بابتسامة حزينة : «يُغلّق.. يعلق». فى هذه اللحظة تكتشف وأنت تنظر إليه أن بياضه يخالطه سمرة.. حواجبه كثيفة وعميقة الدكنة رغم الشيب فى رأسه وعيناه سوداوان «يشبهنا» – تقول فى نفسك ذلك، وترتبك وأنت تودعه أمام مدخل نفق المترو.

الحرس

تترك أكبر متاجر العاصمة «جوم» .. السوق المغطى الكبير بطوابق العديدة ودرجه الصاعد والهابط وجسوره المعلقة بين الردهات والطوابق. فى ذهنك بقايا صور الأرفف الخالة والطوابير الطويلة على شئ ما يعرضونه أقل قبحاً من الأحذية الغليظة والمعاطف الثقيلة الخشنة. لقد كانت هناك أشياء جميلة منذ عام ونصف فقط. فقط. فأين ذهبت ؟ ترك هذا كله خلف ظهرك وأنت تتهيأ للدخول فى أجمل ساحة فى العالم. هكذا تحبها. الساحة الحمراء الفسيحة كما لم شهد أنفساحاً على هذا النحو أبداً. الأرض المبلطة بالصخور الصقيلة السوداء وهى تلمع بالبلل. توشك أن تبدو محدبة لفرط اتساعها فتذكرك باستدارة الأرض. أسوار الكريملين الصفراء الكريمية

هنا والأبنية الراسخة العتيقة ذات الطلاء الطوبى الأحمر العميق هناك. إلى أى حد تحب هذا المكان الذى عندما تقف على أرضه تحس بأنك كائن عال فى وجود جميل وكعادتك النشوى تستدير لتتوقف مواجهاً بكل كيانك كاتدرائية «ڤاسيلى» . يا ألله. فى كل مرة تنتقل بنظرة واحدة لهذه الأعجوبة الملونة إلى عالم خارج هذا العالم أو فى داخله. تحس أنك تتنفس فى عالم الحواديت السحرية هذه النمنمة الهائلة والغنى الخرافى لألوان القباب والزخارف تنفض رأسك غير مصدق لحقيقة صحوك فى هذا المنظر وتستدير بتلكؤ كما فى كل مرة لتواصل طريقك. تقاوم هذا الجذب السحرى لزخارف هذه الأعجوبة الملونة فتحذر أن تلتفت وراءك وأنت تمضى فجأة يملؤك شعور بالرثاء وبالتعجب وأنت تقترب من واجهة الضريح ذى الرخام الوردى الداكن. تقرأ من بعيد تلك الحروف الكبيرة التى تكون اسم «لينين» وتلمح الحارسين الواقفين بكامل أبهتهما العسكرية على جانبى الباب المعدنى الموصود. ساكنين تماماً مثل سلاحهما

الساكن تحت قبضتيهما. وبموازاة الساق المشدودة يقف السلاح على الأرض، ثمة نفر قليل يطلون على المنظر الساكن في سكون. ولا طابور للزوار هناك. فقط طابور الحرس المناوب وهو يتهيأ للبزوغ من تحت القوس الهائل لأحد مداخل سور الكريملين البعيدة. هل هذا الرجل مازال نائماً حقاً هناك. بجسده المحنط وحلته الكاملة القديمة؟ لكم تغيرت الدنيا ويمر على الصورة في ذهنك قطار من الصور عجيب. صورة غلاف مجلة جنس غربية وبه جمع بنات سوفيتيات بنهود عارية وأرداف مكشوفة والخلفية صورة للبنين بقبعته العمالية الشهيرة وصوت المعلِّقة في برنامج التليفزيون السوفيتي «نظرة» .. يصف في حماس اعتراف الغرب، أخيراً، بالجمال السوفييتي. ويتوالى طابور النهود العارية والأرداف. ولا تستطيع أن توقف في ذهنك صوراً أخري تجيئ في هذا القطار. رأيتها في شاشة التليفزيون السوفييتي بالأمس. الفتاة التي ذُبحت وتم دفنها في الثلج بعد الاستيلاء على مائتين من الروبلات كانت معها. وصورة الشاب الصغير الذي

فعل بها ذلك. ثم صورة عرض الأزياء الفاخرة الراقص وصورة التقاتل بالأيدى بين فرقاء سياسيين، وتمضى خارجاً من الميدان الأحمر فى حالة من الشرود. أنت لم تحترم «الأدلجة» أبداً مكثت عمرك تحتفظ بفضيلة الشك فى كل ايديولوجيا تدعى الشمول. لكنك الان تضيف إلى شكك شك جديد. شك فى شمولية الغياب لكل الأيديولوچيا وتخرج من الميدان الأحمر فتحس باستغراب وكأنك تدخل فى عالم آخر.

الفهـــرس

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٠٢ – بالأصابع التى كالمشط .... شعر : محمد سليمان
٢٠٣ – كويلا ....قصص : يحيى مختار
٢٠٤ – الشرنقة .... قصص : سليمان فياض
٢٠٥ – مدينة اللذة .... رواية : عزت القمحاوي
٢٠٦ – كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر
٢٠٧ – طراوة العين ....قصص : نبيل نعوم
٢٠٨ – نخب اكتمال القمر ....قصص : ابتهال سالم
٢٠٩ – طلل النار .... قصص : يوسف أبو رية
٢١٠ – الواحد الواحدة .... شعر : حلمى سالم
٢١١ – فوق الحياة قليلا .... رواية : سيد الوكيل
٢١٢– برجالاتك .... قصص : أمين ريان
٢١٣– وقائع استشهاد اسماعيل النوحى: رواية: سمير ندا
٢١٤ – فخاريات .... شعر : اسامة شهاب
٢١٥ – رجف الذاكرة .... قصص : رضا امام
٢١٦ – تفاصيل وتفاصيل أخرى..........شعر : ابراهيم داود

العدد القادم

رقم الايداع : ٩٨/١٣٩٦٠

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦

لقد كان مصير الكذب مريرا جدا بالنسبة لى، لا كشخص مفرد، ولكن كنموذج من ملايين الحالمين الذين تطلعوا بعيون التمنى إلى تلك الأسطورة المنبسطة فى الشمال الشرقى من عالمهم الجنوبى البائس. ولا أجد شعورا يقارب شعورى فى ذلك إلا ما أتصوره عن مشاعر «السندباد البحرى» فى إحدى حكايات ألف ليلة، عندما تحطمت سفينته فى عرض البحر وسبح إلى جزيرة رائعة تراءت له، وبعد أن عاش هنيئا بين ربوعها بدأت فى التحرك وراحت تغرق إذ كانت مجرد تكوين عارض على ظهر حوت..

تصميم الغلاف: عمر جهان

الأمل للطباعة والنشر